IBN RAJAB

NUR ALOIQTIBAS FI MISHKAT
WASIYAT AL-NABI



DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

جماعة التعاون العلمى

نور الاقتباس

فى مشكاة وصية النبى ﷺ لابن عباس رضى الله عنهما

للحافظ زين الدين أبى الفرج عبد الرحمن المعروف بابن رجب الحنبلى
المتوفى سنة ٧٩٥ هـ

حققه وضبطه وعلق عليه الأستاذان

الشيخ عبد الفتاح خليفة
الأستاذ بدار العلوم
والمفتش بوزارة المعارف سابقاً

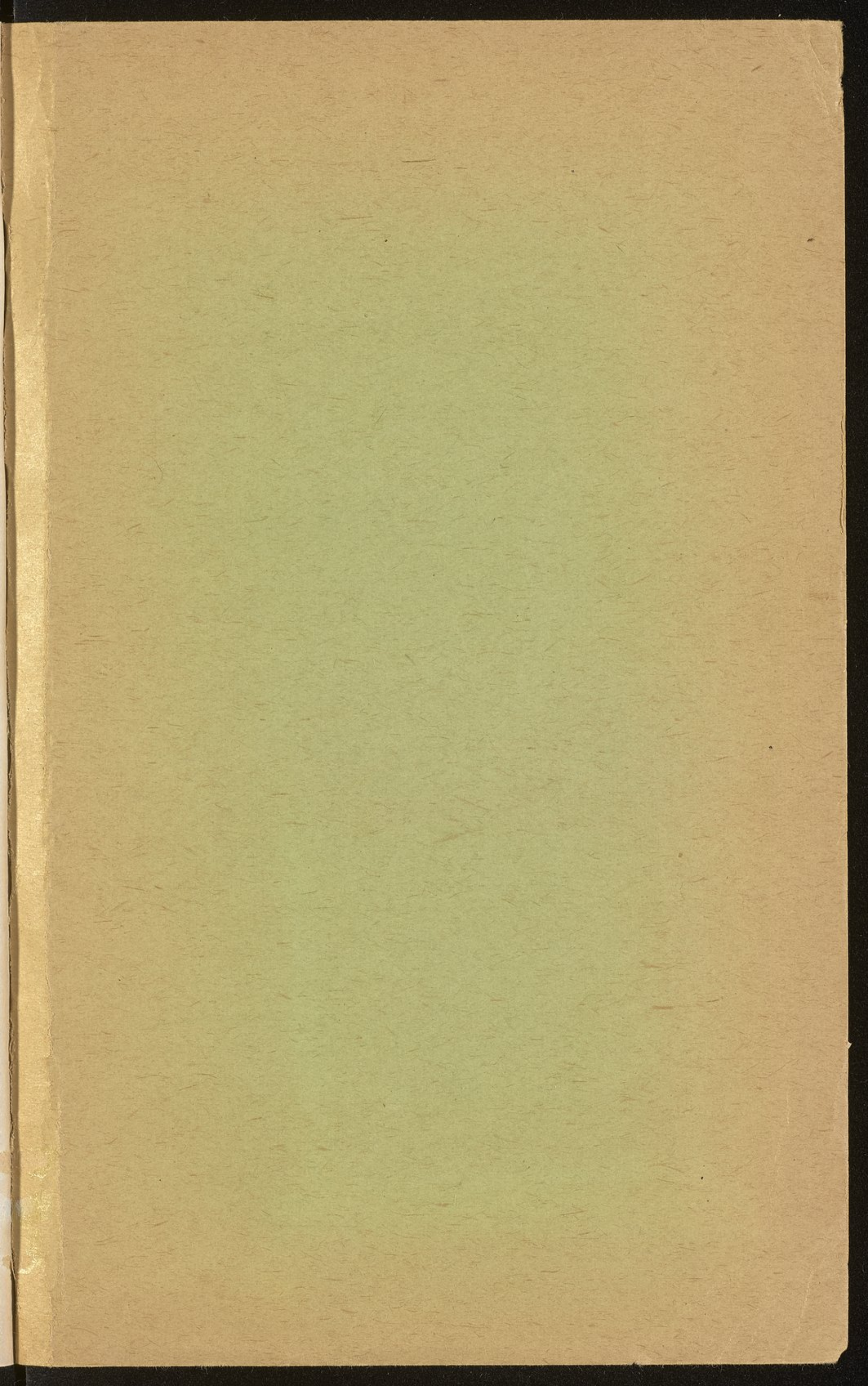
و

الشيخ محمود خليفة
أستاذ الشريعة الإسلامية
فى كلية غردون التذكارية

من أعضاء جماعة التعاون العلمى

الطبعة الأولى
١٣٦٥ — ١٩٤٦

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية



جماعة التعاون العلمى

نور الاقتباس

فى مشكاة وصية النبى صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضى الله عنهما

للحافظ زين الدين أبى الفرج عبد الرحمن المعروف بابن رجب الحنبلى
المتوفى سنة ٧٩٥ هـ

حققه وضبطه وعلق عليه الأستاذان

الشيخ عبد الفتاح خليفه
الأستاذ بدار العلوم
والمفتش بوزارة المعارف سابقاً

و

الشيخ محمود خليفه
أستاذ الشريعة الإسلامية
فى كلية غردون التذكارية

من أعضاء جماعة التعاون العلمى

الطبعة الأولى
١٣٦٥ — ١٩٤٦

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله يحفظ بنصره وتأييده، وحوله وقوته، مَن حفِظ الدين، وأقام حدود رب العالمين، وعمل بالكتاب والسنة. والصلاة والسلام على سيدنا محمد، القائل: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك؛ وعلى آله وأصحابه الحافظين لحدوده، العاملين بكتابه، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

«وبعد» فقد تكونت «جماعة التعاون العلمى» من نخبة من علماء هذا العصر، غرضها إخراج الكتب الدينية، التى تجمع الحكمة والموعظة الحسنة، وتأليفُ ما تراه نافعاً مناسباً لهذا العصر من العظة والإرشاد، وهذا كتاب «نور الاقتباس» للحافظ الواعظ الإمام: «زين الدين بن رجب الحنبلى» — أول — باكورة من أعمالها، تخرجه للناس بعد أن رأته مفيداً فى بابه نافعاً لقارئيه، وبعد ضبطه والتعليق عليه، راجية به النفع، وجليل الأثر. والله المستعان، وهو نعم المولى ونعم النصير.

التعريف بالمؤلف

هو الحافظ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن الإمام المقرىء المحدث شهاب الدين أحمد ابن الإمام المحدث أبى أحمد رجب . والمؤلف مشهور بابن رجب الحنبـلى ، وهو الإمام العالم الزاهد القدوة البركة الحافظ العمدة الثقة الحجة الحنبلى المذهب . قدم من بغداد مع والده إلى دمشق وهو صغير ، سنة أربع وأربعين وسـبعمائة ، وأجازه ابن النقيب والنووى ، وسمع بمكة على الفخر عثمان بن يوسف ، واشـتغل بسماع الحديث باعتناء والده ، وسمع بمصر من صدر الدين أبى الفتح الميدومى ، ومن جماعة من أصحاب ابن البخارى. وكانت مجالس تذكيره للقلوب صارعة ، وللناس عامة مباركة نافعة ، اجتمعت الفرق عليه ، ومالت القلوب بالمحبة إليه ، وله مصنفات مفيـدة ، ومؤلفات كثيرة ، طبع أغلبهـا ونفِد ، لـكثرة إقبال الناس عليه ؛ ومن هذه المؤلفات كتاب « نور الاقتباس » شرح فيه حديث وصـية رسول الله ﷺ لابن عباس رضى الله عنهما — شرحاً يدل على غزارة علمه ، وسعة اطلاعه ، وقوة تأثيره . وتوفى بدمشق ليلة الاثنين لأربع خلون من رمضان ، ودفن هناك سنة خمس وتسعين وسبعمائة رحمه الله رحمة واسعة .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وعليه نتوكل

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً مباركاً فيه ، كما يحب ربنا ويرضى ، وكما ينبغي لكرم وجهه ، وعز جلاله . وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي ، وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أخرج الإمام أحمد[1] من حديث حنش[2] الصنعاني ، عن ابن عباس[3] رضي الله عنهما قال : كنتُ رَدِيفَ[4] النبي ﷺ

---

(١) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل علم أعلام بغداد، تجاوز سبعاً وسبعين سنة وطلب العلم سنة تسع وسبعين ومائة وكان إماماً في الحديث وضروبه، والفقه ودقائقه ، والسنة وعلومها ، ورعاً زاهداً . ولد ببغداد ، ونشأ بها ، ومات بها ، ورحل إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والجزيرة ، وهو أحد الأئمة الأربعة الذين لا تزال مذاهبهم متبعة مشهورة إلى اليوم . ولما مات شيع جنازته من الرجال ثمانمائة ألف ، ومن النساء ستون ألفاً ، وكانت وفاته في الثاني عشر من ربيع الأول صبيحة الجمعة سنة إحدى وأربعين ومائتين رحمه الله رحمة واسعة . (٢) هو حنش بن عبد الله الصنعاني نسبة إلى صنعاء دمشق . كان مع علي رضي الله عنه بالكوفة ، سنة مائة ، ولي عشور إفريقية ، وروى عن جماعة .
(٣) هو عبد الله بن عباس كني بأبيه العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وكان أكبر ولده ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين . قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : كان ابن عباس قد فات الناس بخصال : بعلم ما سبقه ، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه ، وحلم ونسب وتأويل ، وما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ، ولا بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه ، ولا أفقه في رأي منه ، ولا أعلم بشعر ولا عربية ، ولا بتفسير القرآن ولا بحساب ولا بفريضة منه ، ولا أثقب رأياً فيما احتيج إليه منه ، ولقد كان يجلس يوماً للفقه ، ويوماً للتأويل ، ويوماً للمغازي ، ويوماً للشعر ، ويوماً لأيام العرب ، اهـ ، وقد روى عنه خلق كثير . وكان جميلا أبيض جسيما وسيما صبيح الوجه فصيحاً ، توفي سنة ثمان وستين بالطائف وهو ابن سبعين سنة رضي الله عنه .
(٤) وفي رواية خلف .

فقال : ياغلام ، أوْ ياغُلَيِّم [١] : ألا أُعَلمُكَ كلماتٍ ينفعك الله بِهِنَّ ؟ قلت [٢] : بلى ! فقال : احفَظِ الله يحفَظْك ، احفَظِ الله تجدْه أمامك ، تعرَّفْ إلى الله [٣] فى الرخاء يعرفْك فى الشدة ، و إذا سألتَ فاسأل الله ، و إذا استعنتَ فاستعنْ بالله ، قد جفَّ القلمُ بما هو كائن ؛ فلو أَن الخلقَ كلَّهم جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشىء لم يَقْضِهِ [٤] اللهُ عليك — لم يقدروا عليه ؛ و إن أرادوا أن يضرُّوك بشىء لم يكتبْه الله عليك — لم يقدروا عليه ؛ واعلم أن فى الصبر على ماتَكْرَه خيراً كثيراً ؛ وأَن النصرَ مع الصبرِ ؛ وأَن الْفرَجَ مع الْكَرْبِ ؛ وأَن مع الْعُسْرِ يُسْراً .

هكذا ساقه من طريق حنش مع إسنادين آخرين منقطعين [٥] ، وفى السياق أنه لا يحفظ حديث بعضهم من بعض [٦] وخرجه أيضاً من طريق حنش وحده مختصراً ولفظه : ياغلام إنى محدثك حديثاً : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، و إذا استعنت فاستعن بالله فقد رُفِعَتْ الأقلام ، وجَفت الكتب ، فلو جاءت الأمة أن ينفعوك [٧] بشىء لم يكتبه الله لك لما استطاعت [٨] ، وخرجه

---

(١) شك من الراوى ، وهذا يدل على كمال العناية بالمحافظة على لفظ الحديث .
(٢) فى نسخة المسند التى بأيدينا : فقلت . (٣) فى نسخة المسند التى بأيدينا : تعرف إليه . (٤) فى نسخة المسند التى بأيدينا : لم يكتبه. (٥) المنقطع : ما سقط من رواته راو واحد قبل الصحابى فى الموضع الواحد وكذا فى موضعين فأكثر حيث لا يزيد الساقط فى كل منها على واحد . (٦) الذى فى جامع العلوم والحكم للمؤلف : « ولم يميز لفظ بعضها من بعض » . (٧) فى نسخة المسند التى بأيدينا : ينفعونك بثبوت النون وحذف أن . (٨) وزاد فى المسند : ولو أرادت أن تضرك بشىء لم يكتبه الله لك ما استطاعت .

الترمذى[١] بنحو هذا السياق المختصر ، ولفظه : إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، و إذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء كتبه الله لك ، و إن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف . وقال : حديث صحيح[٢] .

وقال الحافظ أبو عبد الله بن منده[٣] : لهذا الحديث طرق عن ابن عباس وهذا أصحها ، قال : وهذا إسناد مشهور[٤] ورواته ثقات .

قلت : قد رُوى هذا الحديث عن ابن عباس رضى الله عنهما من رواية جماعة فمنهم على ابنه[٥] ، وعطاء[٦] ، وعكرمة[٧] ، ومن رواية عمر مولى

---

(١) هو أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى الضرير ، تلميذ أبى عبد الله البخارى ومشاركه فيما يرويه فى عدة من مشايخه ، سمع منه شيخه البخارى وغيره ، وهو أحد الأئمة الذين يقتدى بهم فى علم الحديث ، وتوفى رحمه الله سنة تسع وسبعين ومائتين . (٢) الصحيح : ما رواه عدل تام الضبط متصل السند غير معلل ولا شاذ . (٣) هو أبو عبد الله محمد ابن يحيى بن منده بفتح الميم والدال المهملة بينهما نون ساكنة وفى الآخر هاء ساكنة ، العبدى الحافظ المشهور صاحب كتاب تاريخ أصبهان . كان من الحفاظ الثقات ، وحدث عنه الطبرانى وغيره ، توفى سنة إحدى وثلثمائة . (٤) المشهور ماله طرق محصورة بأكثر من اثنين بخلاف المتواتر وهو الذى لا حصر لطرقه فى عدد معين . (٥) على بن عبد الله بن عباس وكنيته أبو محمد كان سيداً شريفاً ، أجمل قرشى على وجه الأرض وأوسمه وأكثره صلاة روى أن علياً جاء ابن عباس يهنئه به يوم ولد ، وقال له : شكرت الواهب ، وبورك لك فى الموهوب ، ماسميته ؟ قال : أو يجوز أن أسميه حتى تسميه ؟!!! ثم حنكه ، ودعا له ، وقال : خذه إليك أبا الأملاك ، سميته علياً وكنيته أبا الحسن . وكان إذا قدم مكة ، اشتغلت به قريش وأهل مكة إجلالا له ، وتوفى عن ثمانين سنة بأرض البلقاء سنة أربع عشرة ومائة رحمه الله رحمة واسعة . (٦) عطاء : هو أبو محمد عطاء بن أبى رباح ، نشأ بمكة ، وتعلم الكتاب بها ، وكان عبداً أسود سمع عائشة وأبا هريرة وابن عباس . قال أبو حنيفة ما رأيت أفضل منه . وقد انفرد بالفتوى بمكة هو ومجاهد . جلس بين يديه سليمان بن عبد الملك فعلمه مناسك الحج وتوفى بمكة سنة أربع عشرة ومائة رحمه الله رحمة واسعة . (٧) عكرمة : هو أبو عبد الله عكرمة =

عبد الملك بن عمير ، وابن أبى مليكة عن ابن عباس ، وقيل إنهما لم يسمعا منه ، وفى أسانيدهما كلها مقال ، وفى ألفاظها بعض الزيادة والنقص [١] .

وروى عن النبي ﷺ أنه وصى بذلك ابن عباس من حديث على ابن أبى طالب [٢] ، وأبى سعيد الخدرى [٣] ، وسهل بن سعد [٤] ، وغيرهم من الصحابة وفى أسانيدها أيضاً مقال ، وذكر العُقَيلى أن أسانيد الحديث كلها لينة و بعضها أصلح من بعض . قلت : وأجود أسانيده من رواية

= مولى أبى عباس أحد فقهاء مكة من التابعين الأعلام أصله من البربر وهب لابن عباس فعلمه ورحل إلى مصر وخراسان واليمن وأصبهان والمغرب وغيرها ، وأذن له مولاه بالفتوى ، ولما مات مولاه باعه ابنه على من خالد بن يزيد بن معاوية بأربعة آلاف دينار فقال له عكرمة : بعت علم أبيك بأربعة آلاف !!! فاستقاله فأقاله ثم أعتقه . وقد مات سنة خمس ومائة وعمره ثمانون سنة . (١) الذى قاله المؤلف فى جامع العلوم والحكم : وقد روى هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة : من رواية ابنه على ، ومولاه عكرمة ، وعطاء بن أبى رباح ، وعمرو بن دينار ، وعبيد الله بن عبد الله ، وعمر مولى عفره ، وابن أبى مليكة وغيرهم ، وأصح الطرق كلها طريق حنش الصنعانى التى خرجها الترمذى ، كذا قاله ابن منده وغيره . (٢) هو أبو الحسنين على ابن أبى طالب الهاشمى سامى المناقب أول الناس إسلاماً ، وأغزرهم علماً . ولى الخلافة سنة ست وثلاثين واستشهد سنة أربعين صبيحة يوم الجمعة سابع عشر رمضان وعمره ثلاث وستون سنة . ودفن بالكوفة فى قصر الإمارة عند المسجد الجامع ، وغيب قبره . (٣) هو سعد بن مالك ابن شيبان ، وكنيته أبو سعيد الخدرى من مشهورى الصحابة وفضلائهم ، وأول غزاة حضرها الخندق ، وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم اثنتى عشرة غزوة قال : قتل أبى يوم أحد شهيداً ، وتركنا بغير مال ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله شيئاً ، فلما رآنى قال : من استغنى أغناه الله ، ومن يستعفف أعفه الله ، قلت : ما يريد غيرى ، فرجعت ، وكان من حفاظ الحديث المكثرين ، توفى سنة أربع وسبعين يوم الجمعة ودفن بالبقيع وهو ممن له عقب من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين . (٤) هو أبو العباس سهل بن سعد الساعدى الأنصارى وكان اسمه حزناً فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سهلا ، رأى الرسول وسمع منه وكانت سنه خمس عشرة سنة يوم توفى الرسول ، وطال عمره حتى أدرك الحجاج وقد قارب المائة ، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة سنة إحدى وتسعين .

حنش عن ابن عباس التى ذكرناها وهو إسناد حسن[1] لا بأس به .

وقد استوفينا ذكر طرق الحديث مع الكلام عليها فى كتاب شرح الترمذى ، ومقصودنا الكلام على معنى الحديث ، وشرح ألفاظه ، فإنه تضمن وصايا عظيمة ، وقواعد كلية من أهم أمور الدين وأجلها ، حتى قال الإمام أبو الفرج بن الجوزى[2] فى كتابه « صيد الخاطر » : تدبرت هذا الحديث فأدهشنى ، وكدت أطيش ، ثم قال : فوا أسفا من الجهل بهذا الحديث وقلة الفهم لمعناه .

فقوله صلى الله عليه وسلم :

« احفظ الله يحفظك » يعنى احفظ حدود الله ، وحقوقه ، وأوامره ، ونواهيه . وحفظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال ، وعند نواهيه بالاجتناب ، وعند حدوده : فلا يتجاوز ولا يتعدى ما أمر به إلى ما نهى عنه ، ودخل فى ذلك فعل الواجبات جميعاً ، وترك المحرمات كلها ، كما فى حديث ثعلبة المرفوع[3] : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحرم حرمات

---

(١) الحسن : ما اتصل سنده بنقل عدل قل ضبطه عن عدل قل ضبطه إلى منتهاه بلا شذوذ ولا علة . (٢) هو أبو الفرج بن الجوزى ، عبد الرحمن بن على بن محمد بن على ينتهى نسبه إلى أبي بكر الصديق رضى الله عنه فهو قرشى تيمى بكرى بغدادى بلداً حنبلى مذهباً ، كان واعظاً متقناً له تصانيف كثيرة فى التفسير والحديث والفقه والزهد والوعظ والتاريخ والطب ، ولد سنة عشر وخمسمائة . وتاب وأسلم على يديه خلق كثير . ومما قاله فى بعض مناجاته : إلهى لا تعذب لساناً يخبر عنك ، ولا عيناً تنظر إلى علوم تدل عليك ، ولا قدماً تمشى إلى خدمتك ، ولا يداً تكتب حديث رسولك ، فبعزتك لا تدخلنى النار ، فقد علم أهلها أني كنت أذب (أدافع) عن دينك ، وقد توفى ليلة الجمعة بين العشاءين من شهر رمضان ، سنة سبع وتسعين وخمسمائة . (٣) المرفوع : ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

فلا تنتهكوها ، وحدد حدوداً فلا تعتدوها »[1] وذلك كله يدخل فى حفظ حدود الله كما ذكره الله تعالى فى قوله : « والحافظون لحدود الله » الآية[2] وقال تعالى : « هـذا ما تُوعَدون لكل أوَّابٍ حَفيظ ، مَنْ خَشِيَ الرحمنَ بالغيب وجاء بقَلْبٍ مُنيبٍ »[3] وفُسر الحفيظ ههنا بالحافظ لأوامر الله . وفُسر بالحافظ لذنوبه حتى يرجع عنها . وكلاهما يدخل فى الآية .

ومَن حَفِظ وصية الله لعباده وامتثلها فهو داخل أيضاً ، والكل يرجع إلى معنى واحد ، وقد ورد فى بعض ألفاظ حديث[4] يوم المزيد[5] فى الجنة أن الله تعالى يقول لأهل الجنة إذا استدعاهم إلى زيارته ، وكشف لهم الحجب : « مرحباً بعبادى الذين حفظوا وصيتى ، ورعَوا عهدى ، وخافونى بالغيب ، وكانوا منى على كل حال مشفقين » .

فأمره صلى الله عليه وسلم لابن عباس أن يحفظ الله يدخل فيه هذا كله .

---

(١) ونصه كما فى جامع العلوم والحكم : عن أبى ثعلبة الخشنى (جرثوم بن ناشر) رضى الله عنـه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها . حديث حسن رواه الدارقطنى وغيره .
(٢) سـورة التوبة آية (١١٢) . (٣) سورة ق آية (٣٢و٣٣) . (٤) الحديث بطوله فى زيارة أهل الجنة ربهم تبارك وتعالى من كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى وفيه بعد قوله مشفقين : « قالوا : أما وعزتك وجلالك وعلو مكانك ما قدرناك حق قدرك ، ولا أدينا إليك كل حقك ، فأذن لنا بالسجود لك ، فقال لهم ربهم تبارك وتعالى : إنى قد وضعت عنكم مؤنة العبادة ، وأرحت لكم أبدانكم ، فطالما أنصبتم الأبدان ، وأعنيتم الوجوه ، فالآن أفضيتم إلى روحى ورحمتى وكرامتى فسلونى ما شئتم ، وتمنوا على أعطكم أمانيكم ، فإنى لن أجزيكم اليوم بقدر أعمالكم ، ولكن بقدر رحمتى ، وكرامتى ، وطولى ، وجلالى ، وعلو مكانى ، وعظمة شأنى الحديث . (٥) سمى يوم المزيد لما زاده الله لأهل الجنة على ما طلبوه وتمنوه فقد جاء فى الحديث : فقد أوجبت لكم ما سألتم وتمنيتم وزدتكم على ما قصرت عنه أمانيكم .

ومن أعظم ما يجب حفظه من المأمورات : الصلوات الخمس . قال الله تعالى : حَافِظُوا على الصَّلَوَات وَالصَّلَاةِ الْوُسْطى[1] . وقال تعالى : « والَّذينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُون[2] » . وقال النبي ﷺ : «مَن حافظَ عليها كان له عند الله عهداً أنْ يدخلَه الجنةَ » الحديث[3] وفي حديث آخر : « مَن حافظَ عليهِنَّ كُنَّ له نُوراً و بُرهاناً ونجاةً يومَ القيامةِ » الحديث[4] . وكذلك الطهارة فإنها مفتاح الصلاة . وقال النبي ﷺ : « لا يُحافِظُ على الوضوء إلا مؤُمنٌ[5] » فإنَّ العبـدَ تَنْتَقِضُ طهارتُه ولا يَعلمُ بذلك إلا الله[6] .

فالمحافظة على الوضـوء للصلاة دليل على ثبوت الإيمان في القلب .

---

(١) سورة البقرة آية (٢٣٨) .

(٢) سورة المعارج آية (٣٤) .

(٣) هكذا في الأصل بنصب (عهداً) وجاء بالرفع في رواية عبادة بن الصامت رضي الله عنه . قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خمس صلوات كتبهن الله على العباد فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه ، وإن شاء أدخله الجنة . رواه مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه .

(٤) أخرج هذا الحديث احمد بسند جيد والطبراني وابن حبان في صحيحه ، ولفظه إن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الصلاة يوماً فقال : « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف » . قال بعض العلماء : وإنما حشر مع هؤلاء لأنه إن اشتغل عن الصلاة بماله أشبه قارون فيحشر معه ، وإن اشتغل عنها بملكه أشبه فرعون فيحشر معه . وإن اشتغل عنها بوزارته أشبه هامان فيحشر معه ، وإن اشتغل عنها بتجارته أشبه أبي بن خلف تاجر كفار مكة فيحشر معه .

(٥) روى هذا الحديث عن ثوبان رضي الله عنـه ولفظه : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سددوا وقاربوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » رواه ابن حبان في صحيحه .

(٦) يشـير بهذا إلى أن الطهارة تتجلى فيها الإخلاص فإن انتقاضها سر بين العبـد وربه ، فكيف حال عبد يأتي الصلاة بغير طهارة وأمره لايخفى على ربه ؟!!

ومما أمر الله بحفظه الايمان : لمَّا ذَكَرَ كفارة اليمين قال : « ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ[1] » فإن الأيمان كثيراً ما تقع من الناس ومُوجَباتها مختلفة : فتارة يجب بها كفارة يمين[2] ، وتارة يجب بها كفارة مغلظة[3] ، وتارة يلزم بها المحلوف عليه من طلاق ونحوه[4] ، فمَن حفظ أيمانه دل على دخول الإيمان فى قلبه . وكان السلف كثيراً يحافظون على الأيمان ، فمنهم من كان لا يحلف بالله البتة ، ومنهم من كان يتورع حتى يكفر فيما شك فيه الحِنْث[5] . ووصى الإمام أحمد رحمه الله عند موته أن يُخْرَجَ عنه كفارة يمين . وقال : أظن أنى حَنِثْت فى يمين حلفتها . وقد روى عن أيوب عليه السلام أنه كان إذا مر باثنين يحلفان بالله ذهب

---

(١) المائدة آية (٨٩) والمعنى احفظوا أنفسكم من الحنث فى الأيمان ولا تبذلوها ، وأقلوا من الحلف فإن ذلك مسقط لهيبتكم ، وهذا كما قال تعالى : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم »

(٢) المراد اليمين المنعقدة وهى ما يحلف بها الإنسان على أمر فى المستقبل أن يفعله أو لا يفعله ، وإذا حنث فى ذلك لزمته الكفارة . واليمين تكون بالله تعالى ، أو باسم آخر من أسماء الله تعالى ، كالرحمن والرحيم ، أو بصفة من صفاته التى يحلف بها عرفاً كعزة الله وجلاله وكبريائه . ومن حلف بغير الله لم يكن حالفا كالنبى والكعبة . وكفارة هذه اليمين أن يعتق الحانث رقبة ، أو يكسو عشرة مساكين كل واحد ثوباً ، وأدناه ما يستر عامة البدن ، أو يطعم عشرة مساكين بأن يغديهم ويعشيهم ، غداء وعشاء مشبعين ، من أوسط ما يطعم أهله . وهو على الخيار بين العتق والكسوة والإطعام ، متى كان قادراً ، فإن عجز صام ثلاثة أيام متتابعات.

(٣) كما فى كفارة الظهار . وهى عتق رقبة ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ليس فيهما شهر رمضان ، ولا يوم الفطر ، ولا يوم النحر ، ولا أيام التشريق . فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ما يشبعهم غداء وعشاء ، من أوسط ما يطعم أهله .
وتجب هذه الكفارة بهذا الترتيب على من قال لزوجته أنت على كظهر أمى فلا يحل له وطؤها ولا مسها ولا تقبيلها حتى يكفر عن ظهاره .

(٤) كمن قال لزوجته : إن دخلت الدار فأنت طالق فتطلق إن دخلت الدار ، وكمن قال لعبده : إن رزقنى الله ولداً فأنت حر فرزق بولد عتق العبد .

(٥) كذا بالأصل ، والأوضح « فيما شك فى الحنث فيه » .

فكفر عنهما يمينهما ، لئلا يأثما وهما لا يشعران ، ولهذا لما حلف على ضرب امرأته مائة جلدة أفتاه الله بالرخصة[١] لحفظه لأيمانه وأيمان غيره . وقد اختلف العلماء هل تتعدى الرخصة إلى غيره أم لا[٢] .

وقال يزيد بن حبيب : بلغني أن من حَملة العرش من يسيل من عينيه أمثال الأنهار من البكاء ، فإذا رفع رأسه قال : سبحانك ما تُخشى حق خشيتك ، فيقول الله تعالى : لكن الذين يحلفون باسمى كاذبين لا يعلمون ذلك[٣] .

وقد ورد التشديد العظيم فى الحلف الكاذب بالله[٤] ، ولا يصدر كثرة الحلف بالله إلا من الجهل بالله تعالى ، وقلة هيبته فى الصدور .

ومما يلزم المؤمنَ حفظه رأسه وبطنه ، كما فى حديث ابن مسعود[٥]

---

(١) وذلك أن امرأة أيوب عليه السلام ذهبت لحاجة فأبطأت فحلف ليضربنها إن برىء مائة ضربة فأمره الله تعالى أن يأخذ الضغث — وهو عود فيه تسعة وتسعون عوداً — فيضربها به فإن البر فى يمينه يتحقق به .

(٢) فى أحكام القرآن العظيم للجلال السيوطى : عن مجاهد قال : كانت هذه الرخصة لأيوب خاصة ، اهـ وقال بعض العلماء : ذهب الشافعى وأبو حنيفة وزفر إلى أن من فعل ذلك فقد بر فى يمينه ، وخالف مالك ورآه خاصاً بأيوب عليه السلام .

(٣) فيه وعيد شديد لمن يحلف بالله كاذبا وأنه مجرد من خشية الله تعالى والخوف منه (٤) قال تعالى : « إن الذين يشترون بعهدالله وأيمانهم ثمناً قليلا أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » سورة آل عمران آية « ٧٧ » وروى جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من حلف على منبرى هذا بيمين آثمة تبوأ مقعده من النار » . (٥) هو عبد الله بن مسعود الهذلى أحد القراء الأربعة ، ومن السابقين فى الإسلام ، ومن علماء الصحابة رضى الله عنهم : هاجر الهجرتين ، وصلى إلى القبلتين ، وشهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وقال له : « إنك عليم معلم » وكان من المكثرين من رواية الحديث روى ثمانية وأربعين وثمانمائة حديث مات سنة اثنتين وثلاثين عن نيف وستين سنة ، ودفن بالبقيع .

رضى الله عنه مرفوعاً : « الاستحياء من الله حقَّ الحياء : أن يُحفَظ الرأسُ وما وَعَى ، ويُحفظَ البطْنُ وما حَوَى »[1] خرجه الإمام أحمد والترمذى .

وحفظ البطن وما حوى يتضمن حفظ القلب عن الإصرار على محرم . وقد جمع الله ذلك كله فى قوله تعالى : « إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً » ويدخل فى حفظ البطن وما حوى حِفظه من إدخال الحرام إليه من المأكولات والمشروبات[2] . ومما يجب حفظه من المنهيات — حفظ اللسان والفرج ، وفى حديث أبى هريرة[3] رضى الله عنه : من حفظ ما بين لَحْيَيْه وما بين رجليه دخل الجنة « خرجه الحاكم وخرجه البخارى من حديث سهل بن سعد رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، ولفظه :

---

(١) والحديث بتمامه كما جاء فى كتاب الأدب وغيره فى الترغيب والترهيب : عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «استحيوا من الله حق الحياء ، قال : قلنا : يا نبى الله ، إنا لنستحي والحمد لله . قال : ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى ، وتحفظ البطن وما حوى ، ولتذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » . (٢) ومما ورد فى النهى عن تناول الحرام ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : تليت هذه الآية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً » فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن العبد ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به » رواه الطبرانى فى الصغير . (٣) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسى كان يسمى فى الجاهلية عبد شمس فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن أسلم عام خيبر سنة سبع وشهدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لزمه رغبة فى العلم ، وكان كثير العبادة والذكر حسن الأخلاق وكان من المكثرين ، بلغت مروياته أربعة وسبعين وثلثمائة وخمسة آلاف حديث ، وروى عنه أكثر من ثمانمائة رجل من صاحب وتابع ، ولى إمرة المدينة واستعمله عمر على البحرين ثم عزله ثم أراده على العمل فامتنع وسكن المدينة وبها كانت وفاته سنة سبع وخمسين وهو ابن ثمان وسبعين سنة .

« من يضمنْ لى ما بين لَحْيَيْه[1] ورجليه أضمنْ له الجنة » وفى مسند الإمام أحمد عن أبى موسى[2] عن النبى ﷺ قال : « من حفظ ما بين فقْمَيْه[3] وفرجَه دخل الجنة » .

وقد أمر الله بحفظ الفرج خاصة ، ومدح الحافظين . قال الله تعالى : « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ » الآية[4] . وقال تعالى : « وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ »[5] . وقال تعالى : « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ »[6] .

---

(١) لحييه بفتح اللام وسكون الحاء المهملة تثنية لحى وهما العظمان فى جانبى الفم ، والمراد بما بينهما اللسان ، وبما بين رجليه الفرج ، ومعنى « من يضمن » من يؤد الحق الذى عليه بحفظ لسانه من الكذب والغيبة والنميمة وشهادة الزور وهجر القول وكل كلام يأثم به قائله ، وحفظ فرجه من كل ما حرم الله عليه . وفى الحديث إشارة إلى أن أعظم البلاء على العبد فى الدنيا اللسان والفرج فمن وقى من شرهما فقد وقى أعظم الشر .
(٢) هو عبد الله بن قيس بن سليم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان علامة نسابة ، قدم إلى مكة من اليمن مع إخوته فى جماعة من الأشعريين ثم أسلم وانصرف إلى بلاده ، ثم رغب فى العودة إلى مكة مع نحو خمسين من الأشعريين فى سفينة فألقتهم الريح إلى الحبشة ، فوافقوا خروج جعفر بن أبى طالب وأصحابه منها وأتوا معهم فقدمت السفينتان معاً المدينة حين فتح خيبر فقسم صلى الله عليه وسلم لأهل السفينتين من المغانم ، واستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على زبيد وعدن ، واستعمله عمر على البصرة سنة سبع عشرة ، وسار بأمر عمر إلى الأهواز ففتحها وفتح نصيبين سنة تسع عشرة وفتح أصبهان سنة ثلاث وعشرين ثم عزله عثمان عن البصرة فسار إلى الكوفة وبقى بها حتى طالب أهلها عثمان بولاية أبى موسى على الكوفة ؛ فأجابهم وبقى بها حتى قتل عثمان فعزله على ، وكان أحد الحكمين فى التحكيم بين على ومعاوية ومات بالكوفة سنة اثنتين وأربعين وهو ابن ثلاث وستين سنة . (٣) فقميه بضم الفاء وسكون القاف وفتح الميم تثنية فقم وهما اللحيان ، والمراد بما بينهما اللسان . (٤) سورة النور آية (٣٠) . (٥) سورة الأحزاب آية (٣٥) . (٦) سورة المؤمنون آية (٥و٦) .

وقد روى عن أبي إدريس الخولانى [١] : إن أول ما وَصَّى الله آدم عند إهباطه إلى الأرض بحفظ [٢] فرجه وألا يضعه إلا فى حلال .

***

قوله : « يحفظك » يعنى أن من حفظ حدود الله ، وراعى حقوقه — حفظه الله ؛ فإن الجزاء من جنس العمل ، كما قال تعالى : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ » [٣] وقال : « فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ » [٤] . وقال : « إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ » [٥] .

وحفظ الله تعالى لعبده يتضمن نوعين : أحدهما حفظه له فى مصالح دنياه ، كحفظه فى بدنه ، وولده ، وأهله ، وماله .

وفى حديث ابن عمر [٦] رضى الله عنهما قال : لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسى ، وحين يصبح : « اللهم إنى أسألك العافيةَ فى الدنيا والآخرة ؛ اللهم إنى أسألك العفو [٧] والعافية [٨] فى دينى ودنياى وآخرتى [٩] ، وأهلى ، ومالى ؛ اللهم استُرْ عَوْرَاتِى [١٠] ، وَآمِنْ رَوْعاتى [١١] واحفظنى [١٢] مِن بين يدىّ ، ومِن خَلْفى ، وعَنْ يَمينى ، وعن شِمالى ،

---

(١) الخولانى بفتح الخاء وسكون الواو نسبة إلى خولان وهى قبيلة باليمن واسمه عائذ الله بن عبد الله . (٢) هكذا فى الأصل بحذف (وصاه) وإثبات الباء . (٣) سورة البقرة آية (٤٠) . (٤) سورة البقرة آية (١٥٢) . (٥) سورة محمد آية (٧) .
(٦) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوى السيد الجليل ، الفقيه العابد الزاهد ، اعتمر قريباً من ألف عمرة ، قال مالك : بلغ ابن عمر ستاً وثمانين سنة أفتى فى ستين منها . ومروياته ألفان وستمائة وثلاثون حديثا ، وكان من أكثر الصحابة حفظاً وفتيا ولما مات أمرهم أن يدفنوه ليلا ولا يعلموا الحجاج لئلا يصلى عليه ، ودفن بمكة سنة أربع وسبعين رضى الله عنه . (٧) التجاوز عن الذنوب . (٨) السلامة من الآفات . (٩) فى رواية بحذف : آخرتى . (١٠) المراد : معايبى . (١١) مفرده روعة وهى الفزعة . (١٢) فى رواية : اللهم احفظنى .

وَمِنْ فَوْقِى، وأعوذ بعظمتك أن أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي[١]، خرجه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه.

وهذا الدعاء منتزع من قول الله تعالى: «لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[٢] مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ[٣]» الآية[٤]. قال ابن عباس رضى الله عنهما: هم الملائكة يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء القدر خَلَّوْا عنه، وقال على رضى الله عنه: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يُقَدَّرْ، فإذا جاء القدر خَلَّيَا بينه وبينه، وإن الأجل جُنَّةٌ حصينة[٥].

---

(١) طلب من الله تعالى أن يحفظه من الآفات التى تأتى من كل جهة من الجهات الست وخص ما يأتى من ـ تحت ـ بالاستعاذة بعظمته تعالى لأنه يكون بالخسف وهو أشدها.
(٢) والمعقبات: ملائكة يتعاقبون فى حفظ العبد وكلاءته بغير فاصل ومهلة وفى الصحيح: يتعاقب فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار يجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر. (٣) المعنى أن المعقبات محيطة بجميع جوانبه «من أمر الله» من للسببية أى يحفظونه من المضار بسبب أمر الله تعالى لهم بذلك وقرىء «بأمر الله» بالباء الظاهرة فى السببية. (٤) سورة الرعد آية «١١». (٥) وقد أخرج أبو داود وابن المنذر وابن أبى الدنيا وغيرهم عن على كرم الله وجهه قال: لكل عبد حفظة يحفظونه: لا يرج عليه حائط، أو يتردى فى بئر، أو تصيبه دابة، حتى إذا جاء القدر الذى قدر له خلت عنه الحفظة، فأصابه ما شاء الله تعالى أن يصيبه. والمعقبات غير الكرام الكاتبين الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله: «وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون» فإن هؤلاء موكلون بإحصاء عمل العبد خيره وشره. والعبد إذا علم أن الكرام الكاتبين يحصون عليه أعماله كان أقرب إلى الحذر عن ارتكاب المعاصى، وأشد رغبة فى الإكثار من الطاعات، ومن شواهد قوله تعالى: «له معقبات» الآية، ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أربد بن قيس، وعامر بن الطفيل، قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانتهيا إليه، وجلسا بين يديه، فقال عامر: ما تجعل لى إن أسلمت؟!!! قال النبى صلى الله عليه وسلم: لك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم. قال: أتجعل لى إن أسلمت الأمر بعدك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: ليس ذلك لك، ولا لقومك، ولكن لك أعنة الخيل، قال: «فاجعل لى الوبر ولك المدر، فقال صلى الله عليه وسلم: لا. فلما قفل من عنده، قال: لأملأنها عليك خيلا ورجلا، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: يمنعك الله تعالى، فلما خرجا، قال عامر يا أربد إنى سألهى محمداً عنك بالحديث،

وقال مجاهد[1] : ما من عبد إلا له مَلَك يحفظه فى نومه ، ويقظته ، من الجن ، والإنس ، والهوامّ ؛ فما من شىء يأتيه إلا قال : وراءك[2] ، إلا شيئاً قد أذن الله فيه ، فيصيبه .

ومِنْ حِفظ الله للعبد أن يحفظه فى صحة بدنه ، وقوته ، وعقله ، وماله .

قال بعض السلف : « العالم لا يحزن »[3] .

وقال بعضهم : مَن حَفِظ القرآن مُتِّع بعقله[4] ، وتأول ذلك بعضهم على قوله تعالى : « ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ »[5] .

= فاضربه بالسيف ، فإن الناس إذا قتلته لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية ، ويكرهوا الحرب ، فسنعطيهم الدية ، فقال أربد : أفعل ، فأقبلا راجعين . فقال عامر : يا محمد قم معى أكلمك ، فقام عليه الصلاة والسلام معه فوقفا إلى الجدار وجعل عامر يكلمه ، وسل أربد السيف ، فلما وضع يده عليه يبست على قائمه ، فلم يستطع سله ، وأبطأ على عامر ، فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أربد وما يصنع ، فانصرف عنهما ، وقال عامر لأربد : مالك ؟ قال وضعت يدى على قائم سيفى فيبست ، فلما خرجا حتى إذا كانا بالرقم ــ نزلا فخرج إليهما سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، فوقع بهما أسيد . قال : اشخصا يا عدوى الله تعالى ، لعنكما الله تعالى . فقال عامر : من هذا يا سعد ؟ فقال : هذا أسيد بن حضير الكتائب . فقال : والله إن كان حضير صديقاً لى ، ثم إن الله سبحانه أرسل على أربد صاعقة فقتلته ، وخرج عامر ، حتى إذا كان بوادى الجريد ، أرسل الله عليه قرحة ، فكان يصيح : يا لعامر ، أغدة كغدة البعير ، وموت فى بيت سلولية ؟!!

(1) هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر الإمام الحبر المكى ، كان عالماً بالتفسير . قال : عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة . ومات بمكة وهو ساجد وهو ابن ثلاث وثمانين سنة . (2) جاء فى اللسان : وقالوا : وراءك ، إذا قلت : انظر لما خلفك. (3) أى لا يعتريه ما يوجب الحزن أصلا لأن مقصد العالم العامل ليس إلا الله تعالى ، ونيل رضوانه المستلزم للكرامة والزلفى ، وأما الأمور الدنيوية المترددة بين الحصول والفوات فهيهات أن تنتظم فى سلك مقصده وجوداً وعدما حتى يحزن لحصول ضارها أو فوات نافعها . (4) يعنى من حفظ القرآن ، وعمل به حفظ الله عليه نعمة العقل حتى يموت . (5) فعن عكرمة قال : من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر ثم قرأ : « لقد خلقنا الإنسان =

وكان أبو الطيب الطبرى [١] قد جاوز المائة السنة وهو ممتع بعقله ، وقوته ، فوثب يوما من سفينة كان فيها إلى الأرض وثبة شديدة ، فعوتب على ذلك ، فقال : هذه جوارح حفظناها من الصغر فحفظها الله علينا فى الكبر . وعكس هذا أن الجنيد [٢] رأى شيخاً يسأل الناس ، فقال : إن هذا ضيَّع اللهَ فى صغره ، فضيعه اللهُ فى كِبَرِهِ .

وقال محمد بن المُنكدر [٣] : إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده ، وولد

= فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » قال : لايكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئاً .

(١) هو أبو الطيب الطبرى طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر الطبرى القاضى الفقيه الشافعى ، كان ثقة صادقا أديباً ورعا عارفا بأصول الفقه وفروعه ، محققاً فى علمه ، سليم الصدر ، حسن الخلق ، صحيح المذهب ، عاش مائة سنة واثنتين لم يختل عقله ولا تغير فهمه وله مصنفات كثيرة فى العلوم المختلفة وبقى قاضياً حتى توفى ، وكان مولده بآمل سنة ٣٤٨ وتوفى يوم السبت لعشر بقين من ربيع الأول سنة ٤٥٠ ببغداد ودفن بمقبرة باب حرب وصلى عليه فى جامع المنصور رحمه الله رحمة واسعة .

(٢) هو شيخ الصوفية تاج العارفين أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريرى ، أصله من نهاوند، ونشأ بالعراق. حج على قدميه ثلاثين حجة ومن كلامه : الغفلة عن الله تعالى أشد من دخول النار ، ومنه أيضاً: من فتح على نفسه باب نية حسنة فتح الله عليه سبعين باباً من التوفيق ، ومن فتح على نفسه باب نية سيئة فتح الله عليه سبعين باباً من الخذلان من حيث لا يشعر . قال بعض من حضر وفاته : كنت واقفاً على رأس الجنيد وقت وفاته ، وكان يوم جمعة ، وهو يقرأ القرآن ، فقلت له : يا أبا قاسم ارفق بنفسك ، فقال : أرأيت أحداً أحوج إليه منى فى هذا الوقت الذى تطوى فيه صحيفتى ؟ وكان قد ختم القرآن الكريم ثم بدأ بالبقرة فقرأ سبعين آية، ثم مات رحمه الله . وكانت وفاته سنة ثمان وتسعين ومائتين. وقبره ببغداد يزار .

(٣) هو السيد الجليل محمد بن المنكدر التيمى المدنى القرشى ، سمع أبا هريرة ، وابن عباس ، وجابراً ، وأنساً ، وابن المسيب ، وعدة أخر . قيل له : أى الأعمال أفضل ؟ قال : إدخال السرور على المؤمنين ، وقيل له : أى الدنيا أحب إليك ؟ قال : الإفضال على الإخوان . وكان إذا حج خرج بنسائه وصبيانه كلهم ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أعرضهم على الله ، وكان من أزهد الناس وأعبدهم ، وكان بيته مأوى الصالحين ، ومجتمع العابدين . توفى بالمدينة سنة ثلاثين ومائة .

ولده ، وقريتَه التى هو فيها ، والدويراتِ التى حولها ، فما يزالون فى حفظ الله وستره . وقال ابن المسيب[1] لابنه : يابنى إنى لأزيدن فى صلاتى من أجلك رجاء أن أُحْفَظْ فيك ، وتلا هذه الآية : « وكان أبوهما صالحاً » وقال عمر ابن عبد العزيز[2] رحمه الله : مامن مؤمن يموت إلا حفظه الله تعالى فى عقبه وعقب عقبه . وقال يحيى بن إسماعيل بن سلمة بن كهيل : كان لى أخت أسنُّ منى فاختلطت ، وذهب عقلها ، وتوحشت ، وكانت فى غرفة فى أقصى سطوحنا ، فمكثت بذلك بضع عشرة سنة ، فبينما أنا نائم ذات ليلة إذا بابى يدق نصف الليل . فقلت : من هذا ؟ قالت : كجة[3] ، فقلت : أختى ؟ قالت : أختك ، ففتحت الباب ، فدخلتْ ، ولا عهد لها بالبيت أكثر من عشر سنين ، فقالت : أُتِيتُ الليلة فى منامى ، فقيل لى : إن الله حفظ أباك

(١) هو أبو محمد سعيد بن المسيب المخزومى المدنى ، أحد أعلام الدنيا ، سيد التابعين ، قال على بن المدينى : لا أعلم فى التابعين أوسع علماً منه ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لما مات العبادلة : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، صار الفقه فى جميع البلدان إلى الموالى : فقيه مكة : عطاء ، وفقيه اليمن : طاووس ، وفقيه اليمامة ، : يحيي بن أبى كثير ، وفقيه البصرة : الحسن البصرى ، وفقيه الكوفة : ابراهيم النخعي ، وفقيه الشام : مكحول ، وفقيه خراسان : عطاء الخراسانى ، إلا المدينة فإن الله تعالى حرسها بقرشى فقيه غير مدافع : سعيد بن المسيب ، جمع بين الحديث والفقه والتفسير والورع والعبادة ، حج أربعين حجة ، ولم تفته تكبيرة الإحرام مع الإمام فى الصف الأول خمسين سنة . وكان مولده سنة خمس عشرة ، ووفاته بالمدينة سنة أربع وتسعين .

(٢) هو الخليفة العادل أمير المؤمنين ، وخامس الخلفاء الراشدين ، أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموى ، حفظ القرآن فى صغره ، وبعثه أبوه من مصر إلى المدينة فتفقه بها حتى بلغ مرتبة الاجتهاد ، ومدة خلافته سنتان وستة أشهر وأيام كخلافة الصديق رضى الله عنهما . وتوفى وعمره أربعون سنة بدير سمعان من أرض المعرة سنة إحدى ومائة .

(٣) كجة جاء فى اللسان : الكجة بضم الكاف وتشديد الجيم لعبة للصبيان .

إسماعيل لسلمة جدِّك ، وحفظكِ لأبيك إسماعيل فإن شئتِ دعوتِ الله ، فذهب ما بك ، و إن شئت صبرت ولك الجنة ، فإن أبا بكر وعمر قد شفعا لك إلى الله عز وجل بحب أبيك وجَدك إياهما ، فقلت : فإذا كان لابد من اختيار أحدهما ، فالصبر على ما أنا فيه والجنة ، وإن الله عز وجل لواسع بخلقه ، لا يتعاظمه شيء ، إن شاء أن يجمعها لي فعل ، قالت : فقيل : فإن الله تعالى قد جمعهما لك ، ورضي عن أبيك وجدك ، بحبهما أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، قومي فانزلي ، فأذهب الله تعالى ما كان بها .

ومتى كان العبدُ مشتغلا بطاعة الله فإن الله تعالى يحفظه في تلك الحال ، كما في مسند الإمام أحمد عن حُميد بن هلال [١] ، عن رجل قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو بربا [٢] بيتنا ، فقال : إن امرأة كانت فيه ، فخرجت في سَرِيّة [٣] من المسلمين ، وتركت اثنتي عشرة عنزاً وصِيصِيَتَها [٤] قال : ففقدت عنزاً ، وصِيصِيَتَها ، فقالت : كانت تنسِج بها ، فقالت : يارب إنك قد ضمنت لمن خرج في سبيلك أن تحفظ عليه ، وإني قد فقدت عنزاً من غنمي ، وصِيصِيَتي ، وإني أنْشُدُك [٥] عنزي وصِيصِيَتي . قال : فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذْكر شدةَ مناشدتها ربَّها تبارك وتعالى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأصبحت عنزُها ومثلُها ، وصِيصِيَتها ومثلُها ، وهاتيك فأْتِها إن شئت [٦] قال : فقلت : بل أُصَدِّقُك .

(١) حميد بن هلال العدوي أبو نصر البصري ، ثقة عالم . (٢) ربا جمع ربوة بالضم وتفتح : المكان المرتفع من الأرض . (٣) السرية : طائفة من الجيش أقصاها أربعمائة تبعث إلى العدو وجمعها السرايا ، وقد خرجت هذه المرأة مع السرية لمصالح الجند كالسقاية ونحوها (٤) وهي الصنارة التي يغزل بها وينسج . (٥) أي أسألك درهماً إلي . (٦) خطاب من النبي صلى الله عليه وسلم للرجل الذي يحدثه أن يسأل المرأة إن شاء عن هذا الشأن .

وكان شيبان الراعى يرعى غنما ، فإذا جاءت الجمعة ، خَطَّ عليها خطا ، وذهب إلى الجمعة ، ثم يرجع وهى كما تركها .

وكان بعض السلف بيده الميزان يزن بها دراهم ، فسمع الأذان ، فنهض ونفضها[1] على الأرض ، وذهب إلى الصلاة ، فلما عاد جمعها ، فلم يذهب منها شىء .

ومن أنواع حفظ الله لمن حفظه فى دنياه أن يحفظه من شر كل من يريده بأذى من الجن والإنس ، كما قال تعالى : « وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً[2] . قالت عائشة[3] رضى الله عنها : يكفيه غَمَّ الدُّنيا وهمَّها .

وقال الربيع بن خيثم : يجعل له مخرجاً من كل ما ضاق على الناس .

وكتبت عائشة رضى الله عنها إلى معاوية[4] : إن اتقيت الله كفاك الناس ، وإن اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً .

---

(١) ألقاها ورمى بها وفيه إشارة إلى حرصه على إدراك الصلاة وعدم اهتمامه بالدراهم

(٢) سورة الطلاق آية (٢) والمعنى ومن يمتثل ما أمره الله به ، ويجتنب ما نهاه الله عنه يجعل له مخرجاً من هموم الدنيا وأهوال الآخرة . وعن ابن عباس قال : قرأرسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » فقال : مخرجاً من شبهات الدنيا ، ومن غمرات الموت ، ومن شدائد يوم القيامة . (٣) هى الصديقة بنت الصديق ، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة وهى ابنة ست ، وبنى بها بالمدينة وهى بنت تسع ، ولم يتزوج بكراً سواها ، وتوفى عنها وهى بنت ثمانى عشرة سنة ، وكانت من أكثر الصحابة حفظاً وفتيا . قال مسروق : لقد رأيت مشيخة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونها عن الفرائض ، وقال عروة بن الزبير : ما جالست أحداً قط أعلم بقضاء ، ولا بحديث بالجاهلية ، ولا أروى للشعر ، ولا أعلم بفريضة ، ولا طب من عائشة رضى الله عنها . وتوفيت سنة سبع وخمسين فى رمضان عن خمس وستين سنة ودفنت بالبقيع رضى الله عنها . (٤) معاوية بن أبى سفيان كان من دهاة العرب وحلمائها ، وهوأحد كتبة الوحى ، ولى الشام لعمر وعثمان عشرين سنة ، وتملكها بعد على عشرين سنة إلا شهراً ، وتوفى بدمشق فى رجب سنة ستين ، وله ثمان وسبعون سنة .

وكتب بعض الخلفاء إلى الحكم بن عمرو الغفارى كتاباً يأمره فيه بأمر يخالف كتاب الله ، فكتب إليه الحكم : إنى نظرت فى كتاب الله فوجدته قَبْل كتابِ أمير المؤمنين ، وإن السمواتِ والأرَض لو كانتا رَتْقاً [١] على امرىء ، فاتقى الله عز وجل — جعل له مخرجاً والسلام .

وكتب وأنشد بعضهم :

بِتقْوى الإله نجا من نجا وفاز وصار إلى مارجا
ومن يتق الله يجعل له — كما قال — من أمره مخرجاً

كتب بعض السلف إلى أخيه : أما بعد فإنه من اتقى الله فقد حفظ نفسه ، ومن ضيّع تقواه ، فقد ضيّع نفسه ، والله الغنى عنه .

ومِن عجيب حفْظ الله تعالى لمن حَفِظه — أن يجعلَ الحيواناتِ المؤذيةَ بالطبع حافظةً له مِن الأذى ، وساعيةً فى مَصالحه ؛ كما جرى لسَفِينةَ [٢] مولى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ حيث كُسِر به المرْكَبُ ، وخرج إلى جزيرة ، فرأى السبُعَ فقال : يا أبا الحارث [٣] أنا سَفِينَةُ مولى النبى صلى الله عليه وسلم ؛

---

(١) رتقاً أى ملتحمتين لا انفراج فيهما .

(٢) هو مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من فارس ، فاشترته أم سلمة ثم أعتقته واشترطت عليه أن يخدم النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن أم سلمة وعلى ، وروى عنه غيره ، ومن رواية محمد بن المنكدر عنه أنه قال : ركبت سفينة فانكسرت ، فركبت لوحاً منها ، فطرحنى إلى الساحل ، فلقينى أسد ، فقلت : يا أبا الحارث ، أنا سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فطأطأ رأسه ، وجعل يدفعنى بجنبه ، أو بكتفه حتى وقفنى على الطريق ، فلما وقفنى على الطريق همهم فظننت أنه يودعنى . وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سفينة . وهو الذى روى عن النبى صلى الله عليه وسلم حديث : الخلافة فى أمتى ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك .

(٣) كنية السبع .

فجعل يمشى حوله،ويدُلُّه على الطريق ، حتى أوقفه عليها ، ثم جعل يهمهم[1] كأنه يودعه ، وانصرف عنه .

وكان أبو ابراهيم السايحُ ، قد مرض فى بَرِّيَّةٍ بقرب دير فقال : لو كنتُ عند باب الدير لنزل الرهبان فعالجونى ، فجاء السبع ، فاحتمله على ظهره ، حتى وضعه على باب الدير ، فرآه الرهبان ، فأسلموا ، وكانوا أربعمائة .

وكان إبراهيم بن أدهم نائماً فى بستان ، وعنده حية ، فى فمها طاقة نرجس، فما زالت تذب عنه الذباب حتى استيقظ . فمَنْ حَفِظَ اللهَ حَفِظَه من الحيوانات المؤذية بالطبع ، وجعل تلك الحيوانات حافظةً له ، ومن ضَيّع اللهَ ضَيّعَهُ اللهُ بين خلقه ؛ حتى يَدْخل عليه الضررُ ممن كان يرجو أن ينفعَه ، ويَصير أَخصُّ أَهْلِه به ، وأَرفقُهم به يؤذيه . كما قال بعضهم : إنى لأعصى الله فأعرف ذلك فى خلق خادمى ، وحمارى : يعنى أن خادمه يَسُوء خلقُه عليه ، ولا يطيعُه ، وحماره يَسْتَعصى عليه ، فلا يُواتيه لركوبه .

فالخير كله مجموع فى طاعة الله والإقبال عليه والشر كله مجموع فى معصية الله والإعراض عنه .

قال بعض العارفين : مَن فَارَقَ سُدَّةَ[2] سَيِّده لم يَجدْ لقدميه قراراً أبداً .

والله ما جِئْتُكُمْ زائراً إلا وجدتُ الأرض تُطْوى لِى
ولا ثَنَيْتُ الْعَزْمَ عن بَابِكُم إلا تعَثَّرْتُ بِأذْيالى

---

(١) الهمهمة : ترديد الصوت فى الصدر .

(٢) السدة : الباب والجمع سدد كغرفة وغرف .

النوع الثانى من الحفظ — وهو أشرفها وأفضلها — حفظ الله تعالى لعبده فى دينه: فيحفظ عليه دينه، وإيمانه فى حياته من الشبهات المُرْدِيَة[1]، والبدع المُضِلَّة[2]. والشهوات المحرَّمة؛ ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفاه على الإسلام. قال الحكم بن أَبَانَ عن أبى مكىّ: إذا حضر الرجلَ الموتُ يقال لِلمَلَك: شمَّ[3] رأسه. قال: أجد فى رأسه القرآنَ. قال: شمَّ قلبه. قال: أجد فى قلبه الصيامَ. قال: شَمَّ قَدَمَيه. قال: أجد فى قدميه القيامَ. قال: حَفِظَ نفسه، فحفظه اللهُ عزوجل. خرّجه ابن أبى الدنيا.

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث البراء بن عازب[4] أن النبى صلى الله عليه وسلم علمه أن يقول عند منامه: اللهم إنْ قبَضْتَ نَفْسى فارْحَمْها، وإن أَرْسَلْتَها فاحْفَظْها بما تَحْفَظُ به عبادك الصالحين.

وفى حديث عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه علمه أن يقول: اللهم احفظنى بالإسلام قائماً، واحفظنى بالإسلام قاعداً، واحفظنى بالإسلام راقداً، ولا تُطِع فِيّ عَدُوًّا ولا حاسداً. خرجه ابن حِبَّان فى صحيحه.

وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا ودع من يريد السفر يقول له: أَسْتَوْدِعُ اللهَ دينَك وأمانتك، وخواتيمَ عملِك. وفى رواية: وكان يقول: إنَّ اللهَ إذا اسْتُوْدِعَ شيئاً حفِظه. خرجه النسائى وغيره.

---

(١) المهلكة. (٢) التى تحول بين العبد وبين الهداية. (٣) فعل أمر من شممت الشىء أشمه من باب تعب، وشممته شماً من باب قتل لغة اهـ مصباح. (٤) أبوعمارة البراء ابن عازب الأنصارى الحارثى نزيل الكوفة، كان من أقران ابن عمر، استصغر يوم بدر، له حديث واحد عن أبى بكر رضى الله عنه وهو من المكثرين من رواية الحديث، ومروياته خمسة وثلثمائة حديث. توفى سنة اثنتين وسبعين رضى الله عنه.

وخرّج الطبرانى حديثاً مرفوعاً : إنّ العبدَ إذا صلّى الصلاةَ على وجهها صَعِدَت إلى اللهِ ولها بُرهانٌ كبُرهان الشمس ، وتقول لصاحبها : حفظك الله كما حفظتنى ، وإذا ضَيَّعها لُفَّتْ كما يُلَفُّ الثوبُ الخَلَقُ ، ثم يُضْرَبُ بها وجهُ صاحبها ، وتقول : ضيَّعَك اللهُ كما ضيَّعتنى [١] .

وكان عمر رضى الله عنه يقول فى خطبته : اللهم اعْصِمْنا بِحِفْظِكَ . وَثَبِّتْنَا على أمْرِكَ .

ودعا رجلٌ لبعض السَّلَف بأن يَحْفَظه الله ، فقال : يا أخى لا تسألْ عن حِفْظِه ، ولكن قُلْ يحفظُ الإيمان . يعنى أن المهم هو الدعاء بحفظ الدين ، فإن الحفظَ الدنيوىَّ قد يشتركُ فيه البَرُّ والفاجرُ [٢] ، فالله يحفظ على المؤمن دينه ، ويحول بينه و بين ما يفسده عليه بأسباب قد لا يشعر العبد ببعضها ، وقد يكون يَكرَهُه . وهذا كما حفظ يوسف عليه السلام . قال تعالى : « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين » [٣] . فمن أخلص لله خَلَّصه اللهُ من السوء ، والفحشاء ، وعصمه منها من حيث لا يشعر ، وحال بينه وبين أسباب المعاصى المهلكة . كما رأى

---

(١) وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى الصلوات لوقتها ، وأسبغ لها وضوءها ، وأتم لها قيامها ، وخشوعها ، وركوعها ، وسجودها — خرجت وهى بيضاء مسفرة تقول : حفظك الله كما حفظتنى . ومن صلاها لغير وقتها ، ولم يسبغ لها وضوءها ، ولم يتم لها خشوعها ، ولا ركوعها ، ولاسجودها ، خرجت وهى سوداء مظلمة تقول : ضيعك الله كما ضيعتنى ، حتى إذا كانت حيث شاء الله ، لفت كما يلف الثوب الخلق ، ثم ضرب بها وجهه » ، رواه الطبرانى فى الأوسط . والثوب الخلق : الممزق ، وذلك كناية عن عدم قبول الصلاة .

(٢) ومصداق ذلك من السنة قوله صلى الله عليه وسلم : إن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا من يحب . (٣) سورة يوسف آية (٢٤) .

معروفٌ الكرْخىّ [١] شبابا يتهاونون فى الخروج إلى القتال فى فِتْنةٍ ، فقال : اللهم احْفظْهُم ، فقيل له : تدعو لهؤلاء ؟ فقال : إنْ حَفِظَهم لم يَخرجوا إلى القتال .

وسمع عمر رجلا يقول : اللهم إنك تَحُول بينَ المرءِ وقَلبِه ، فحل بينى و بين معاصيك ، فأعجب عمر ودعا له بخير .

وروى ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : « يحول بين المرء وقلبه [٢] » قال : يحول بين المؤمن و بين المعصية التى تجره إلى النار .

حَجَّ بعض المتقدمين فبات بمكة مع قوم ، فَهَمَّ بمعصية ، فسمع هاتفاً يهتف يقول : « ويلك ألم تَحُجَّ ؟ فعصمه الله مما هَمَّ به .

وخرج بعضهم مع رفقة إلى معصية ، فلما هَمَّ بمواقعتها ؛ هتف به هاتف : « كلُّ نفسٍ بمَا كَسَبَتْ رهينة [٣] » فتركها .

---

(١) القدوة الزاهد معروف الكرخى ، أبو محفوظ ، صاحب الأحوال والكرامات كان من موالى على بن موسى الرضى ، وكان أبواه نصرانيين فأسلماه إلى المؤدب ، فقال له : إن الله ثالث ثلاثة ، فقال : بل هو الله أحد ، فضربه ، فهرب وأسلم على يد على بن موسى الرضى ، ورجع إلى أبويه فأسلما ، واشتهرت بركاته ، وإجابة دعوته . وكان من المحدثين . ومن كلامه : علامة مقت الله للعبد أن يراه مشتغلا بما لا يعنيه من أمر نفسه ؛ وقال : طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور ، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق . توفى رحمه الله سنة مائتين . (٢) سورة الأنفال آية (٢٤) وهو إخبار من الله عز وجل أنه أملك لقلوب عباده منهم ، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء ، حتى لا يقدر أحد منهم أن يدرك بقلبه شيئاً من إيمان أو كفر أو طاعة أو معصية إلا بإذنه تعالى ومشيئته . عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن إكثاره الدعاء « يا مقلب القلوب ! ثبت قلبى على دينك » فقال : يا أم سلمة إنه ليس آدمى إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله تعالى ، فمن شاء أقام ، ومن شاء أزاغ . (٣) سورة المدثر آية (٣٨) والمعنى : إن كل نفس مرهونة عند الله تعالى بكسبها ، مجزية بما عملت إلا أصحاب اليمين وهم المسلمون المخلصون الذين فكوا رقابهم بما أحسنوا من أعمالهم كما يفك الراهن رهنه بأداء دينه .

ودخل رجل غَيْضَةً[1] ذات شجر ، فقال : لو خلوتُ ههنا بمعصيةٍ من كان يرانى ؟ فسمع صوتا ملأ ما بين حافتى الغيضة : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ[2] » ؟ !!!

وهَمَّ[3] رجلٌ بمعصية فخرج إليها ، فمر فى طريقه بقاصٍ يقصُّ على الناس ، فوقف على حَلْقَتِه[4] ، فسمعه يقول : أيها الهامّ بالمعصية ! أما علمت أن خالق الهِمَّة مطلع على همتك ؟ فوقع مغشياً عليه[5] ، فما أفاق إلا من توبة .

كان بعض الملوك الصالحين قد تعلق قلبه بمملوك له جميل ، فخشى على نفسه ، فقام ليلة فاستغاث الله ، فمرض المملوك من ليلته ، ومات بعد ثلاث .

ومنهم من عصم نفسه بموعظة جرت على لسان من أراد منه الموافقة على المعصية ، كما جرى لأحد الثلاثة الذين دخلوا الغار ، وانطبقت عليهم الصخرة ، فإنه لما جلس من تلك المرأة مجلس الرجل من امرأته قالت له : يا عبد الله ! اتق الله ، ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فقام عنها[6] .

---

(١) الغيضة الشجر الملتف ومجمع الماء وهو المراد هنا . (٢) سورة الملك آية (١٤)
(٣) همّ بالشىء هما من باب قتل إذا أراده ولم يفعله . (٤) درسه . (٥) تعطلت قواه وحواسه من شدة تأثره بالموعظة . (٦) وقصة ماجرى له أن امرأة نزلت بها ضائقة شديدة ، وأدركتها الفاقة والفقر ، فذهبت إلى هذا الرجل وكان ابن عمها تطلب معروفه ، وكان غنياً فأبى أن يعطيها شيئاً حتى تمكنه من نفسها ، وترددت عليه ثلاث مرات ترجو بره وهو يمتنع عن مساعدتها ، ولم تجد بداً فى المرة الثالثة من إجابته إلى ما طلب إبقاء على أولادها الذين يعالجون الرمق الأخير من شدة الجوع . فلما قرب منها ، وكشف عن ساقيها ارتعدت وبكت ، فقال : ما يبكيك ؟ قالت : أخاف الله رب العالمين. فقام عنها وهو أشد ما يكون إشفاقاً عليها وتأثراً من قولها وقال : أتخافين ربك فى الشدة ولا أخافه فى الرخاء ؟ ! ! وترك لها من الذهب ما يغنيها ابتغاء وجه الله تعالى .

وكذلك الـكِفْـل[١] من بنى إسرائيل ، كان لا يتورع عن معصية ، فأعْجَبَتْـه امرأةٌ ، فأعطاها ستين دينارا ، فلما قعـد منها مقعـد الرجل من امرأته ، ارتعـدت ، فقال : أَكْرَهْتُكِ ؟ قالت : لا ، ولـكن عملٌ ما عمِلْتُـه قط ، و إنما حملنى عليه الحاجةُ ، فقال : تخافين الله ولا أخافه ؟!! ثم قام عنها ، ووهب لها الدنانير ، وقال : والله لا يعصى اللهَ الـكفلُ أبدا ، ومات من ليلته ، فأصبح ، مكتوبا على بابه ، قد غفر اللهُ للـكفل . خرّج الإمام أحمد والترمذى حديثه هذا من حديث ابن عمر مرفوعا .

وراود رجـلٌ امرأةً عن نفسها ، وأمرهـا بِغَلْق الأبوابِ ففعلتْ ، وقالتْ له قد بقى بابٌ واحدٌ . قال : أىُّ باب ؟ قالت : البابُ الذى بيننا وبين اللهِ تعالى ، فلمْ يتعرَّضْ لها .

وراود رجل أعرابيةً ، وقال لها ما يرانا إلا الـكواكبُ . قالتْ : فأيْن مُـكَوْكِبُها ؟ وهذا كلّـه من ألطافِ الله تعالى ، وحَيْلُولَتِه بين العبدِ ومعْصِيته .

قال الحسن[٢] وَذَكَرَ أهلَ المعاصى — : هانوا عليـه فعصَوْه ، ولو عزّوا عليه لعصَمَهم .

---

(١) الـكفل بكسر الـكاف اسم رجل وأصله فى اللغة الحظ والنصيب ومع أن هذا الرجل كان لا يتورع عن مقارفة المعاصى ، فقد أدركته عناية الله تعالى ، فقبل توبته ، وغفر له حوبته ، لـكى يعرف الملأ من بنى إسرائيل عناية الله بالمذنبين ، إذا أتوا نادمين مخلصين . وفى الحديث الصحيح إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها . أخرجه مسلم .

(٢) الحسن بن أبى الحسن البصرى أبو سـعيد إمام أهل البصرة ، وخير أهل زمانه ، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ،وكان جميلا فصيحاً . قال أبو عمرو بن العلاء : =

وقال بِشْر [1] : ما أَصَرَّ على معصيةِ اللهِ كريمٌ ، ولا آثَرَ الدنيا على الآخرة حليم .

***

ومن أنواع حفظ الله لعبده فى دينه ، أَنَّ العبدَ قد يسعى فى سبب من أسباب الدنيا : إِمَّا الولاياتُ ، أو التجارات ، أوغير ذلك ؛ فيحول الله بينه و بين ما أراده ، لما يعلم له من الخير فى ذلك ، وهو لا يشعر ، مع كراهته لذلك .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : إِنَّ العبدَ لَيَهُمُّ بالأمر من التجارة أو الإمارة ، فينظر الله إليه ، فيقول للملائكة : اصرفوه عنه ، فإنى إن

= ما رأيت أفصح من الحسن والحجاج ، قيل : ولا أشعر من رؤبة والعجاج . وقال ابن سعد فى طبقاته : كان جامعاً عالماً رفيعاً فقيهاً حجة مأموناً عابداً ناسكا كثير العلم فصيحاً جميلا وسيما اه . ولما ولى ابن هبيرة العراق وخراسان نيابة عن يزيد بن عبد الملك ، استدعى الحسن ، وابن سيرين ، والشعبى ، وذلك فى سنة ١٠٣ فقال لهم : إن الخليفة كتب إلى بأمر يخالف كتاب الله . فقال ابن سيرين والشعبى قولا فيه بعض تقية . فقال : ما تقول يا حسن ؟ قال : يا ابن هبيرة ؛ خف الله فى يزيد ، ولا تخف يزيد فى الله ، فإن الله يمنعك من يزيد ، ولا يمنعك يزيد من الله ، ويوشك أن يبعث إليك ملكا فيزيلك عن سريرك ، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك إلا عملك ، يا ابن هبيرة : إياك أن تعصى الله ، فإنما جعل الله هذا السلطان ناصراً لدين الله تعالى وعباده ، فلا تتركن دين الله وعباده لهذا السلطان ، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . وله مع الحجاج وقعات هائلة وسلمه الله من شره ، وربما حضر مجلسه فلم يقم له ، ولم يغير كلامه الذى هو فيه . توفى سنة عشر ومائة ، ولما شيع الناس جنازته لم تقم صلاة العصر فى الجامع ، ولم يحدث مثل ذلك منذ قام الإسلام رحمه الله تعالى ورضى عنه . (١) يظهر أنه بشر الحافى وهو أبو نصر بشر بن الحارث المروزى الزاهد عاش خمساً وسبعين سنة وتوفى ببغداد فى ربيع الأول سنة ٢٢٧ وكان رحمه الله ممن فاق أهل عصره فى الورع والزهد وتفرد بوفور العقل ، وأنواع الفضل ، وحسن الطريقة ، وعزوف النفس ، وإسقاط التكلف والفضول . ومن كلامه : الفكرة فى أمر الآخرة تقطع حب الدنيا ، وتذهب شهواتها .

يَسَّرْتُه له أَدْخلتُه النارَ ؛ فيصرفُه الله عنه ، فَيَظَلُّ يَتطَيرَّ : يقول : سبقنى فلان ، دهانى فلان . وما هو إلا فضل الله عز وجل .

وأعجب من هذا أن العبد قد يطلب باباً من أبواب الطاعات ، ولا يكون فيه خير ، فيحول الله بينه و بينه صيانة له وهو لايشعر .

وخرج الطبرانى وغيره حديث أنس[(١)] مرفوعاً ، يقول الله عز وجل : إن من عبادى من لايُصْلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأَفسده ذلك ، و إن من عبادى من لا يصلح إيمانَه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك ، و إن من عبادى من لا يُصلح إيمانه إلا الصحة ، ولو أسقمتْهُ لأفسده ذلك ، و إن من عبادى من لا يُصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك ، و إن من عبادى من يطلب باباً من العبادة ، فأَكفُّه عنه كى لا يدخلَه العُجْب . إنى أُدَبِّر عبادى بعلمى بما فى قلوبهم ، إنى عليمٌ خبيرٌ .

كان بعض المتقدمين يكثر سؤال الشهادة ، فهتف به هاتف : إنك إن غزوت أُسرت ، وإن أُسرت تنصرت ، فكف عن سؤاله .

وفى الجملة فمن حفظ حدود الله ، وراعى حقوقه تولى الله حفظه فى أمور دينه ودنياه ، وفى دنياه وآخرته .

وقد أخبر الله تعالى فى كتابه أنه ولى المؤمنين ، وأنه يتولى الصالحين ،

---

(١) هو أبو حمزة أنس بن مالك الأنصارى النجارى خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو من سادات الصحابة ، دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثرة المال والولد والبركة فيهما فدفن من أولاده لصلبه مائة وعشرين ، وكان نخله يثمر فى العام مرتين ، وكان من المكثرين من رواية الحديث ، ومروياته ٢٢٧٦ حديثاً ، سكن البصرة من خلافة عمر ليفقه الناس ، ومات بها وعمره ثلاث ومائة سنة وكانت وفاته رضى الله عنه سنة ٩٣ .

وذلك يتضمن أنه يتولى مصالحهم فى الدنيا والآخرة ، ولا يكلهم إلى غيره .

قال تعالى : « اللهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّور [1] » .

وقال تعالى : « ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمنوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ [2] » . وقال تعالى : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ [3] » . وقال تعالى : « أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ [4] » ؟

فمن قام بحقوق الله عليـه فإن الله يتكفَّل له بالقيام بجميع مصالحه فى الدنيا والآخرة . فمن أراد أن يتولى اللهُ حفظَه ، ورعايتَه فى أموره كلِّها فلْيراعِ حقوق الله عليه ، ومن أراد ألاّ يصيبَه شىءٌ مما يَكرهُ ، فلا يَأت شيئاً مما يَكرهُه اللهُ .

كان بعض السلف يَدورُ على المجالس ويقول : من أَحب أن تدومَ له العافيةُ فلْيتق اللهَ .

وقال العمرى الزاهدُ لمن طلب منه الوصية : كما تحب أن يكون الله لك فهكذا كن لله عز وجل .

وفى بعض الآثار : يقول الله : وعزتى وجلالى لا أَطَّلع على قلب عبد ، فأعلم أن الغالب عليه حبُّ التمسك بطاعتى إلا توليتُ سياستَه وتقويمَه .

وفى بعض الكتب المتقدمة : يقول الله عز وجل : ابن آدم ! ألا تُعلمنى مايضحكك [5] ؟ يابن آدم اتقِنى ونمْ حيث شئت . والمعنى : أنك إذا قمت بما عليك من حقوق التقوى ، فلا تهتم بعد ذلك بمصالحك ،

---

(١) سورة البقرة آية (٢٥٧) . (٢) سورة محمد آية (١١) . (٣) سورة الطلاق آية (٣) . (٤) سورة الزمر آية (٣٦) . (٥) الاستفهام غير حقيقى .

فإن الله هو أعلم بها منك ، وهو يوصلها إليك على أتمّ الوجوه من غير اهتمام منك بها .

وفى حديث جابر رضى الله عنه : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله ، فلينظر كيف منزلة الله عنده ، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه .

فهذا يدل على أنه على قدر اهتمام العبد بحقوق الله ، ومراعاة حدوده ، واعتنائه بذلك ، وحفظه له — يكون اعتناؤُه به ، وحفظُه له . فمن كان غاية همه ، رضا الله عنه ، وطلب قربه ، ومعرفته ، ومحبته ، وخدمته ، فإن الله يكون له على حسب ذلك ، كما قال تعالى : «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ[1]» «وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ[2]» . بل هو سبحانه أكرم الأكرمين ، فهو يجازى بالحسنة عشرا ويزيد « ومن تقرب منه شبراً تقرب منه ذراعا ، ومن تقرب منه ذراعا تقرب منه باعا ، ومن أتاه يمشى أتاه هرولة » مايؤتى الإنسانُ إلا من قِبَل نَفْسه ، ولا يصيبه المكروه إلا من تفريطه فى حق ربه عز وجل .

قال على رضى الله عنه : لا يَرْجُوَنَّ عبدٌ إلاَّ ربَّه ، ولا يخافَنَّ إلاَّ ذَنبَه ، وقال بعضهم : من صفا صُفِّىَ له ، ومن خَلط خُلط عليه .

وقال مسروق : من راقب الله فى خطرات قلبه ، عصمه الله فى حركات جوارحه .

وبَسْط هذا المعنى يطول جداً ، وفيما أشرنا إليه كفاية . ولله الحمد .

---

(١) سورة البقرة آية (١٥٢) . (٢) سورة البقرة آية (٤٠)

وقوله صلى الله عليه وسلم : « تجدْه أمامك » وفى رواية أخرى « تجاهك » — معناه أن مَن حَفِظ حدود الله ، وراعى حقوقه ، وجد الله معه فى جميع الأحوال : يحوطه ، وينصره ، ويحفظه ويُوفّقه ويؤيده ، ويُسَدِّده ؛ فإنه قائم على كل نفس بما كسبت ، وهوَ تعالى — مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

قال قتادة : ومن يتّق الله يَكنْ معه ، ومن يكن اللهُ معه فمعه الفئةُ التى لا تُغْلَبُ ، والحارسُ الذى لاينامُ ، والهادى الذى لا يضِل .

كتب بعض السلف إلى أخ له : « أما بعد » إن كان اللهُ معك فمن تخاف ؟ و إن كان عليك فمن ترجو ؟ والسلام .

وهذه المعية الخاصة بالمتقين غيرُ المعية العامة المذكورةِ فى قوله تعالى : « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ[1] » وقوله : « وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إذْ يُبَيِّتُونَ مَالاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ[2] » فإن المعيةَ الخاصة تقتضى النصر ، والتأييد ، والحفظ ، والإعانة ؛ كما قال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام : « لاَ تَخَافَا إنَّنِى مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأَرَى[3] » وقوله تعالى : « إذْ يَقُولُ لِصَاحِبِه لاَ تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنَا[4] » وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد قال لأبى بكر الصديق رضى الله عنه فى تلك الحال : مَا ظَنكَ باثنين اللهُ ثالثُهما ؟ فهذا غير المعنى المذكور فى قوله تعالى : « مَايَكُونُ مِن نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلاَ خَمْسَةٍ إلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ

---

(١) سورة الحديد آية (٤) . (٢) سورة النساء آية (١٠٨) . (٣) سورة طه آية (٤٦) . (٤) سورة التوبة آية (٤٠) .

وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا[1] » الآية ـ فإن ذلك عام لكل جماعة .

ومن هذا المعنى الخاص — الحديث الإلهى ؛ وقوله فيه : « ولا يَزالُ عبدى يتقرَّبُ إلىَّ بالنَّوافِل حتى أُحبَّهُ ، فإذا أَحْبَبْتُه كنتُ سمعَه الذى يسمع به ، وبصرَهُ الذى ينْصرُ به ، ويدَه التى يَبْطِشُ بها ، ورِجْلَه التى يَمْشى بها[2] » إلى غير ذلك من نصوص الكتاب والسنة الدالة على قُرْب الربِّ سبحانه ممن أطاعه واتقاه ، وحفظ حدوده ورعاه .

دخل بنَان الحمّالُ البرّيّة على طريق تبوك[3] ، فاستوحش ، فهتف به هاتف : لِمَ تَسْتَوحشُ ؟ أليس حبيبك معك ؟ ! ! ! فمن حفظ الله وراعى حقوقه ، وجده أمامه ، وتجاهه على كل حال فَلْيستأنِس به ، ولْيَسْتَغنِ به عن خلقه .

وفى الحديث : أفضلُ الإيمانِ أن يعلم العبدُ أنَّ الله معه حيث كان . خرجه الطبرانى وغيره . وَبَسْطُ هذا القول يَطُول جداً .

كان بعض العلماء الربّانيين[4] كثير السفر وحده ، فخرج الناس مرّة معه ، يودعونه ، فردهم وأنشد :

---

(١) سورة المجادلة آية (٧) . (٢) من حديث رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى قال : من عادى لى ولياً فقد آذنته (أعلمته) بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه . وهذا الحديث أشرف حديث فى ذكر الأولياء .
(٣) تبوك بالفتح ثم الضم وواو ساكنة وكاف ، من أرض الشام ، وقعت بها آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم انتصر فيها من غير حرب . وبين تبوك وبين المدينة اثنتا عشرة مرحلة . (٤) جمع ربانى وهو العارف بالله عز وجل ، منسوب إلى الرب أى الله تعالى .

إذا نحنُ أَدْلَجنا [١] وأنتَ أمامنا كفى لمطايانا [٢] بذكراكَ هاديا

وكان الشِّبْلِيّ يُنْشِد هذا البيت ، وربما قطع مجلسه عليه .

* * *

قوله صلى الله عليه وسلم : « تعرّفْ إلى الله فى الرخاءِ يَعرفْك فى الشدة »

المعنى : أن العبد إذا اتقى الله ، وحفظ حدوده ، وراعى حقوقه فى حال رخائه وصحته ، فقد تعرف بذلك إلى الله ، وكان بينه وبينه معرفة ، فعرَفَه ربُّه فى الشدة ، وعرف له عملَه فى الرخاء ، فنجّاه من الشدائد بتلك المعرفة .

وهذه أيضاً معرفة خاصة تقتضى القرب من الله عز وجل ، ومحبّتَه لعبده ، وإجابته لدعائه . وليس المراد بها المعرفة العامة ، فإن الله لا يخفى عليه حالُ أحد من خَلْقِه ، كما قال تعالى : « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ [٣] » وقال تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ [٤] » .

وهذا التعرف الخاص هو المشار إليه فى الحديث الإلهى : ولا يزَالُ عبدى يَتقرّب إلَيّ بالنوافل حتى أحبّه ، إلى أن قال : وَلَئِنْ سألنى لَأُعْطِينَّه ، وَلَئِنْ استَعَاذَنِى لَأُعِيذَنَّه .

اجتمع الفضيل بشَعْوانَة العابدة ، فسألها الدعاء ، فقالت : يا فضيل ومابينك و بينه؟ إن دعوته أجابك ، فشهق [٥] الفضيل شهقة خرمغشياً عليه .

وقال أبو جعفر السايح : أتى الحسن إلى حبيب أبى محمد هارباً من

---

(١) أدلج إدلاجاً مثل أكرم إكراماً : سار الليل كله . (٢) المطا وزان العصا : الظهر ومنه قيل للبعير مطية لأنه يركب مطاه . (٣) سورة النجم آية (٣٢) . (٤) سورة ق آية (١٦) . (٥) تردد البكاء فى صدره .

الحَجَّاج ، فقال : يا أبا محمد احفظنى من الشُّرَط[1] ، هم على أَثَرى[2] .

فقال يا أبا سعيد : أليس بينك و بينه من الثقة ماتدعوه ، فيسترك من هؤلاء ؟ ادخل البيت . فدخل الشُّرَطُ على أثره فلم يروه ، فذكروا ذلك للحجاج ، فقال : بل كان فى بيته إلا أن الله طمس على أعينهم فلم يروه .

ومتى حصل هذا التعرّف الخاص للعبد ، حصل للعبد معرفة خاصة بربه توجب له الأنس به ، والحياء منه ، وهذه معرفة خاصة غيرُ معرفة المؤمنين العامة ، ومدارُ العارفين كلِّهم على هذه المعرفة ، وهذا التعرّف ، و إشاراتهم تومىء إلى هذا ؟

سمع أبو سليمانَ رجلاً يقول : سهرت البارحة فى ذكر النساء ، فقال : وَيْحَكَ[3] !!! أما تستحى منه يراك ساهراً فى ذكر غيره ؟ ولكن كيف تستحى ممن لا تعرف ؟

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكى : أُحِبُّ ألا أموتَ حتى أعرفَ مولاى وليس معرفته الإقرارَ به ، ولكن المعرفة الذى إذا عرفته استحييت منه . وهذه المعرفة الخاصة ، والتعرف الخاص ، توجب طمأنينة العبد بربه ، وثقته به ، فى إنجائه من كل شدة وكرب ، وتوجب استجابة الرب دعاء عبده .

لما اختفى الحسن البصرى من الحجّاج ، قيل له : لو خرجت من البصرة فإنا نخاف أن يُدلَّ عليك ! فبكى ، ثم قال : أخرج من مصرى ،

---

(١) جمع شرطة بضم الشين وإسكان الراء وفتح الطاء : طائفة من أعوان الولاة ، سموا بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات يعرفون بها .

(٢) خرج فى إثره بكسر الهمزة وسكون المثلثة وأثره بفتح الهمزة وفتح المثلثة: بعده .

(٣) كلمة رحمة .

وأهلى ، وإخوانى ؟!!! إن معرفتى بربى ، وبنعمته علىّ تدُلنى على أنه سينجينى ، ويخلصنى منه إن شاء الله تعالى ، فما ضَرَّه الحجاجُ بشىء ، ولقد كان يكرمه بعد ذلك إكراماً شديداً .

وقال رجل لمعروف : ما الذى هيَّجك على الانقطاع والعبادة ؟ ذكر الموت ، والبرزخ ، والجنة ، والنار ؟ فقال معروف : أى شىء هذا ؟ إنّ مَلِكاً هذا كله بيده إن كانت بينك و بينه معرفةٌ كفاك جميع هذا .

ومما يبين هذا و يوضحه الحديث الذى خرجه الترمذى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : مَن سَرَّه أن يستجيبَ الله له عند الشدائدِ فلْيُكثر الدعاءَ فى الرخاء .

وخرّج ابن أبى الدنيا ، وابن أبى حاتم ، وابن جرير ، وغيرُهم من حديث يزيد الرّقاشى عن أنس يرفعه ؛ أن يونس عليه السلام لما دعا فى بطن الحوت ، قالت الملائكة : يارب ! هذا صوت معروف فى بلاد غريبة فقال الله : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا : ومن هو ؟ قال : عبدى يونس . قالوا : عبدك يونس الذى لم يزل يُرفع له عملٌ متقبَّل ، ودعوة مستجابة ؟!!! قال : نعم . قالوا : يارب ! أفلا ترحم ما كان يصنع فى الرخاء فتنجيه من البلاء ؟! قال : بلى ، فأمر الله الحوت فطرحه بالعَراء (١) .

وقال الضحّاك بن قيس : اذكروا الله فى الرّخاء يذكرْكم فى الشدة ، إن يونسَ عليه السلام كان يذكر الله ، فلما وقع فى بطن الحوت قال الله تعالى :

---

(١) العراء : الفضاء لا يستتر فيه بشىء .

« فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ، لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ[1] » .

و إن فرعون كان طاغياً ، ناسياً لذكر الله ، فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ ، فقال الله تعالى : « آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ[2] » .

وقال رشدين بن سعد : قال رجل لأبى الدرداء رضى الله عنه : أَوْصِنِى ، فقال : أُذكر الله فى السرّاء[3] يذكرك فى الضرّاء[4] فنزلت به ضراء ، فدعا الله عز وجل ، فقالت الملائكة : صوتٌ معروف ، فشفعوا له . وإذا كان ليس بدعّاء فى السراء فنزلتْ به ضراء ، فدعا الله عز وجل — قالت الملائكة : صوت ليس بمعروف ، فلا يشفعون له . وحديث الثلاثة الذين دخلوا الغار وانطبقت عليهم الصخرة يشهد لهذا أيضاً ، فإن الله فرج عنهم بدعائهم بما كان سبق منهم من الأعمال الصالحةِ الخالصة فى حال الرخاء : من بر الوالدين ، وترك الفجور ، وأداء الأمانة الخفية . فإذا علم أن التعرف إلى الله تعالى فى الرخاء يوجب معرفة الله لعبده فى الشدة ، فلا شدة يلقاها العبد فى الدنيا أعظم من شدة الموت ، وهى أهون مما بعدها إن لم يكن مصير العبد إلى خير ، و إن كان مصيرُه إلى خير فهى آخرُ شدة يلقاها ، فالواجب على العبد الاستعداد للموت قبل نزوله بالأعمال الصالحة ، والمبادرة إلى ذلك ،

---

(١) سورة الصافات آية (١٤٣ و١٤٤) استشهاد المصنف بالآية يفيد أن يونس عليه السلام كان كثير التسبيح قبل التقام الحوت إياه أيام الرخاء ، وقال بعضهم إن تسبيحه كان فى بطن الحوت وهو ما ذكره الله تعالى فى قوله : « فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » . (٢) سورة يونس آية (٩١) والاستفهام للانكار والتوبيخ ، والظرف متعلق بمحذوف يقدر مؤخراً أى آلآن تؤمن وقد يئست من الحياة ، وأيقنت بالممات . (٣) السرور والخير والفضل . (٤) نقيض السراء وتطلق على المشقة والعسر .

فإنه لايدرى المرء متى تَنْزل به هذه الشدة من ليل أو نهار . وذِكْرُ الأعمال الصالحة عند الموت مما يُحَسِّنُ ظَنَّ المؤمن بربه ، ويُهَوِّن عليه شدة الموت ، ويقوّى رجاءه .

قال بعضهم : كانوا يَسْتَحِبُّون أن يكون للمرء خبيئةٌ [(١)] من عمل صالح ، ليكون أهوَن عليه عند نزول الموت ، أو كما قال . وكانوا يستحبون أن يموت الرجل عقبَ طاعةٍ عملها من حج ، أو جهاد ، أو صيام .

وقال النَّخَعى : كانوا يستحبون أن يُلَقِّنوا العبدَ محاسنَ عمله عند موته لكى يحسن ظنه بربه .

قال أبو عبد الرحمن السلمى فى مرضه : كيف لا أرجو ربى ، وقد صُمت له ثمانينَ رمضان ؟

ولما احْتُضِرَ أبو بكر بن عباس ، وبكَوْا عليه قال : لاتبْكوا فإنى ختمت القرآن فى هذه الزاوية ثلاث عشرة ألف ختمة .

وروى أنه قال لابنه : أترُى أن الله يضيع لأبيك أربعين سنة يختم كل ليلة [فيها القرآن [(٢)]] ؟ .

وقال بعض السلف لابنه عند موته ورآه يبكى قال : لا تبكِ فما أوتى أبوك قط .

وختم آدم بن أبى إياس القرآن ، وهو مُسَجًّى [(٣)] للموت ، ثم قال : بحبى لك إلا رَفقْتَ بى فى هذا المصرع ، كنتُ أؤَمِّلُك لهذا ، كنت أرجوك لهذا ، لا إله إلا الله ثم قَضَى [(٤)] رحمه الله .

---

(١) كصدقة السر والصلاة فى جوف الليل . (٢) ما بين القوسين ليس فى الأصل .
(٣) مغطى . (٤) مات .

وكان عبد الصمد الزاهد يقول عند موته : سيدى ! لهذه الساعة خَبأتك، حقق حسن ظنى بك .

وقال ابن عقيل عند موته وقد بكى النسوة : قد وُقِفْتُ عنه خمسين سنة، فدعونى أتهنَّأ بلقائه . ولما هجم القَرامِطَة [1] على الحُجاج ، وقتلوهم فى الطواف ، وكان على بن با كَوَيْه الصوفى يطوف فلم يقطع الطواف والسيوف تأخذه حتى وقع ، فأنشد :

ترى المحبين صرعى فى ديارهم كفتية الكهف لايدرون كم لبثوا ؟

و بعده بيت آخر :

تالله لو حلف الأحباب أنهم موتى من البين يوم البين ماحنِثُوا

فمن أطاع الله واتقاه ، وحفظ حدوده فى حياته تولاه الله عند وفاته ، وتوفاه على الإيمان ، وثبَّته بالقول الثابت فى القبر عند سؤال الملكين ، ودفع عنه عذاب القبر ، وآنس وحشته فى تلك الوحدة ، والظُّلمة .

قال بعض السلف : إذا كان الله معك عند دخول القبر ، فلا بأس عليك ، ولا وحشة .

ورئى بعض العلماء فى النوم بعد موته ، فسئل عن حاله ، فقال : يُؤْنِسُنى ربى عز وجل ، فمن كان الله سبحانه وتعالى أنيسه فى خلواته فى الدنيا ، فإنه يرجى أن يكون أنيسَه فى ظلمات اللحود ، إذا فارق الدنيا ، وتخلى عنها ، وفى هذا يقول بعضهم :

---

(١) طائفة من الباطنية ظهرت دعوتهم فى خلافة المأمون ، وانتشرت فى خلافة المعتصم . وهم أشد ضرراً على الإسلام من اليهود والنصارى والمجوس .

فيارب كن لى مؤنساً يوم وحشتى		فإنى بما أنزلتَه لمصدّق

وما ضرنى أنى إلى الله صائر		ومن هو مِن أهلى أبر وأرفق

وكذلك أهوال القيامة ، وأفزاعها ، وشدائدها إذا تولى الله عبده المطيعَ له فى الدنيا أنجاه من ذلك كله .

قال قتادة فى قوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً » قال : من الكرب عند الموت ، ومن أفزاع يوم القيامة .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى هذه الآية : ينجيه من كل كرب فى الدنيا والآخرة .

وقال زيد بن أسلم فى قوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا[1] » قال : يُبَشَّرُ فى ذلك عند موته ، وفى قبره ، ويوم البعث ، فإنه لفى الجنة ، وما ذهبت فَرْحَة البشارة من قلبه .

وقال ثابت البُنانى فى هذه الآية : بلغنا أن المؤمن حين يبعثه الله من قبره ، يتلقاه ملكاه اللذان كانا معه فى الدنيا فيقولان له : لا تخف ولا تحزن ، فيُؤَمن الله خوفَه ، ويُقرُّ عينَه ، فما من عظيمة تغشى الناس يوم القيامة إلا وهى قُرَّةُ عين ، لِما هداه الله ، ولما كان يعمل فى الدنيا . خرّج ذلك كلَّه ابنُ أبى حاتم وغيرُه .

وأما من لم يتعرفْ إلى الله فى الرخاء ، فليس له أن يَعْرِفَه فى الشدة ، لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ، وشواهد هذا ، مشاهدةُ حالهم فى الدنيا ، وحالهم فى الآخرة أشدّ ، ومالهم من ولى ولا نصير .

* * *

---

(١) سورة فصلت آية (٣٠)

قوله ﷺ : « إذا سألتَ فاسأل الله » أمرٌ بإفراد الله تعالى بالسؤال ، ونَهْيٌ عن سؤال غيره من الخلق ، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بسؤاله فقال : « وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ[١] » .

وفى الترمذى عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعاً : مَن لا يَسْأَل اللهَ يغضبْ عليه ، وفيه أيضاً عن أبى هريرة : اسألوا الله من فضله ، فإن الله يُحِبُّ أن يُسأل ، وفيه أيضاً إن الله يحب المُلِحِّين فى الدعاء .

وفى حديث آخر : لِيَسْأَلْ أَحَدُكم ربَّه حاجته كلها ، حتى يسأله شِسْع نَعْلِه[٢] إذا انقطع .

وفى هذا المعنى أحاديث كثيرة . وفى النهى عن سؤال الخلق أحاديث كثيرة صحيحة .

وفى حديث ابن مسعود ، وابن عمر رضى الله عنهما مرفوعاً : لا يزال العبد يسأل وهو غنى ، حتى يَخْلُقَ[٣] وجهُه ، فما يكون له عند الله وجه .

وقد بايع النبى ﷺ جماعة من أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئاً ، منهم الصديق رضى الله عنه ، وأبو ذر ، وثوبان ، وكان أحدهم يَسْقُطُ سوطُه ، أو خِطامُ ناقته[٤] ، فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه . رضى الله عنهم .

واعلم أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين عقلا وشرعا ، وذلك من وجوه متعددة : منها أن السؤال فيه بذل لماء الوجه ، وذلة للسائل ، وذلك لا يصلح إلا لله وحده ، فلا يصلح الذل إلاَّ له بالعبادة ، والمسألة ؛ وذلك من غاية المحبة الصادقة .

---

(١) سورة النساء آية (٣٢) . (٢) زمام بين الأصبع الوسطى والتى تليها .
(٣) خلق الثوب كنصر وكرم وسمع : بلى وتمزق . (٤) ما يوضع فى أنف الدابة لتقاد به .

سئل يوسف بن الحسين : ما بال المحبين يتلذذون بذلهم فى المحبة ؟
فأنشد :

ذُلُّ الفتى فى الحب مَكْرُمةٌ وخضوعه لحبيبه شرف

وهذا الذل ، وهذه المحبة لا تصلح إلا لله وحده ، وهذا هو حقيقة العبادة التى يختص بها الإِلٰهُ الحق .

كان الإمام أحمد — رحمه الله — يقول فى دعائه : اللهم كما صُنْتُ وجهى عن السجود لغيرك ، فصُنْه عن المسألة لغيرك .

وقال أبو الحسين الأقطع : كنت بمكة سنة ، فأصابتنى فاقة وضرر ، فكنت كلما أردت أن أخرج إلى المسألة هتف بى هاتف يقول : الوجه الذى تسجد لى به تبذله لغيرى ؟!!

وفى المعنى يقول بعضهم :

ما اعْتاضَ باذِلُ وجْهِهِ بسؤاله بدلاً ، وإن نال الغنى بسؤال
وإذا السؤالُ مع النوال وزَنْتَهُ رجح السؤالُ ، وخفَّ كلُّ نَوَال
فإذا ابتُلِيتَ بِبَذْلِ وجْهِكَ سائلا فابذُله للمتَكرِّم المفضال

ولهذا المعنى كان عقوبة من أكثر المسألةَ بغير حاجةٍ أن يأتى يوم القيامة ، وليس على وجهه مُزْعَةُ[1] لحم ، كما ثبت ذلك فى الصحيحين ، لأنه أذهب عِزَّ وجهه ، وصيانته ، وماءَه فى الدنيا ، فأذهب الله من وجهه فى الآخرة جمالَه ، وبهاءَه الحسىّ ، فيصير عظما بغير لحم ، ويَذْهَبُ جمالُه ، وبهاؤه المعنوى ، فلا يبقى له عند الله وجاهةٌ .

(١) بضم الميم وكسرها : القطعة من اللحم .

ومنها أن سؤال الله عبوديةٌ عظيمة ، لأنها إظهارُ الافتقار إليه ، واعترافٌ بقدرته على قضاء الحوائج ، وفى سؤال المخلوق ظلم ، لأن المخلوقَ عاجزٌ عن جلْب النفع لنفسه ، ودفع الضر عنها ، فكيف يقدر على ذلك لغيره ؟ وسؤاله إقامةٌ له مُقامَ من يقدرُ وليس هو بقادر .

ويشهد لهذا المعنى الحديثُ الذى فى صحيح مسلم عن أبى ذَرٍّ رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : يا عبادى ! لو أن أوَّلكم وآخركم وإنسَكم وجنَّكم ، قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى ، فأَعْطَيْتُ كُلَّ إنسان مسألته ، مانقصَ ذلك مِمَّا عندى إلاَّ كما ينقصُ المِخْيَطُ [1] إذا غُمِس فى البحر .

وفى الترمذى وغيره زيادة فى هذا الحديث « وذلك بأنى جوادٌ واجد ماجد ، أَفْعلُ ما أريد ، عَطائى كلامٌ وعذابى كلام [2] ؛ إذا أردت شيئاً فإنما أقولُ له كن فيكون » . فكيف يُسأل الفقيرُ العاجز ، ويُترك الغنىُّ القادر ؟ إن هذا لأعجبُ العجب .

قال بعض السلف : إنى لأستحى من الله أن أسألَهُ الدنيا وهو مالكها فكيف أسألُها من لا يملكها ؟!! يعنى المخلوق .

وحصل لبعض السلف ضيق فى معيشته حتى همّ أن يطلب من إخوانه ، فرأى فى منامه قائلا يقول له : « أيحسن بالحُر المُريد ، إذا وجد عند الله ما يريد ، أن يميل بقلبه إلى العبيد » ؟!!! فاستيقظ وهو أغنى الناس قلباً وقال :

---

(١) الخياط ككتاب ، المخيط كمنبر : الإبرة ، وما خيط به الثوب . (٢) هذا تصوير ليسر الأمور عليه سبحانه ، وأنه لا يشق عليه شىء .

عذابُه فيـــكَ عَذْبُ وبُعده فيـــكَ قُرْبُ
وأَنْتَ عِنْـدى كَرُوحى بل أَنت منها أَحَبُّ
حَسْبى من الحب أَنِّى لمـــا تُحِبُّ أُحِبُّ

وأنشد أبو تراب (١) :

لا تُخْدَعَنَّ ، فَلِلْمُحِبِّ دلائلُ وَلَدَيْه من تُحَفِ الحبيب وسائلُ
منها : تنَعُّمُهُ بمُرِّ بَلائه وسُروره فى كل ما هو فاعل
فالمنعُ منه عطيَّةٌ مقبولةٌ والفقرُ إكرامٌ وبِرٌّ عاجل

دخلوا على رجل قد قُتل ابنـهُ فى الجهاد ، يُعزُّونه ، فبكى ، وقال : ما أبكى على قتله ، إنما أبكى كيف كان رضاه عن الله حين أخذته السيوف ؟

إنْ كان سكَّانُ الْغضا رَضُوا بِقَتْلى فَرْضـــا
وَالله ما كنتُ لمــا يَهْوَى الحبيبُ مُبْغِضـــا
صِرتُ لهمْ عبداً ، وما للعبـــد أنْ يعْـتَرِضا
هُمْ قلَّبوا قلبى من الشَّـــوْق عَلَى جَمْرِ الْغضـــا
يا ليت أيـــامَ الحِمَى يَعُود ما مِنْهـــا مَضَى
مَن لمريض لا يرَى إلاَّ الطبيبَ المُمْرِضـــا ؟

والمقصود أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر ابن عباس رضى الله عنهما بالعمل بالرضا إن استطاعه ، ثم قال له : فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وهذا يدل على أن الرضا بالأقدار المؤلمة ، ليس بحتم واجب ، وإنما هو فضل مندوب إليه ، فمن لم يستطع الرضا فليلزم الصبر ، فإن الصبر

---

(١) كنية جماعة ، أولهم على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، ومنهم أبو تراب عسكر بن حسين النخشبى الصوفى ، وهذا الشعر بكلام الصوفية أشبه .

واجب لابد منه ، وفيه خير كثير ، فإن الله تعالى أمر بالصبر ، ووعد عليه جزيل الأجر . قال تعالى : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [1] » وقال تعالى : « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ [2] » وقال تعالى : « وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ [3] » .

قال الحسن : الرضا عزيز : ولكن الصبر مُعَوَّلُ المؤمن ، وقال سليمان الخواص : الصبر دون الرضا ، فالرضا أن يكون الرجل قبل نزول المصيبة راضياً بأى شىء كان ، والصبر أن يكون بعد نزول المصيبة يصبر . وحقيقة الفرق بين الصبر والرضا ، أن الصبر كَفُّ النفس ، وحبسها عن التَّسَخُّط مع وجود الألم ؛ والرضا يُوجب انشراحَ الصدر وسَعَته ، وإن وجد الإحساس بأصل الألم ، لكن الرضا يُخَفِّف الإحساس بالألم ، لِما يُباشِر القلبَ من رُوح اليقين والمعرفة ، وقد يُزيل الإحساسَ بالكلية كما سبق تقرير لهذا .

وقال طائفة من أكثر السلف منهم عمر بن عبد العزيز ، والفضيل ، وأبو سليمان ، وابن المبارك ، وغيرهم : إن الراضَى لايتمنى غيرَ حاله التى هو عليها ، بخلاف الصابر .

وقد روى عن طائفة من الصحابة هذا المعنى أيضاً ، وأنهم كانوا

---

(١) سورة الزمر آية (١٠) . (٢) سورة البقرة آية (١٥٥و١٥٦و١٥٧) .
(٣) سورة الحج آية (٣٤) و (٣٥) .

لا يتمنَّون غير ما هم عليه من الحال ، منهم عمر وابن مسعود رضى الله عنهما .

قال عبد العزيز بن أبى رِواد : كان عابدٌ يتعبّد فى بنى إسرائيل ، فرأى فى منامه أن فلانةَ زوجَتُه فى الجنة ، فاستضافها ثلاث ليال لينظر عملها ، فكانت تنام وهو يقوم ، وتفطر وهو يصوم ، فلما فارقها سألها عن أوثق عملها عندها : قالت هو ما رأيتَ إلا خُصَيْلَةً واحدة : إنْ كنتُ فى شدة لم أَتَمَنَّ أنى فى رخاء ، وإن كنت فى مرض لم أَتَمَنَّ أنى فى صحة ، وإن كنت جائعة لم أَتَمَنَّ أنى شبعانة ، وإن كنت فى شمس لم أَتَمَنَّ أنى فى فَىْء[1] .

فقال العابد : هذه والله خصلة يعجِز عنها العباد .

وكما أن الصبر إنما يكون عند الصدمة الأولى كما صح ذلك عن النبى ﷺ فالرضا إنما يكون عند نزول البلاء ، كما كان النبى ﷺ يقول فى دعائه : وأسألك الرضا بعد القضاء ، لأن العبد قد يعزم على الرضا بالقضاء قبل وقوعه ، فإذا وقع انفسخت تلك العزيمة ، فمن رضى بعد وقوع القضاء فهو الراضى حقيقة . وفى الجملة فالصبر واجب لا بد منه ، وما بعده إلا التسخط وَمَن سَخِط أقدارَ الله ، فله السخط مع ما يتعجل له من الألم ، وشماتةُ الأعداء به أعظمُ من جزعه كما قال بعضهم :

لا تجْزَعَنْ من كل خطب عَرَا ولا تُرى[2] الأعداءَ ما يشمتوا[3]

ياقوم بالصبر يُنالُ المنى إذا لقيتُمْ فِئَةً فاثْبُتُوا

---

(١) ظل .

(٢) هكذا فى الأصل بإثبات حرف العلة مع الجازم والصحيح حذفه .

(٣) هكذا فى الأصل بإلحاق واو الجماعة وحذف نون الرفع والصحيح « يشمت » بضم الياء وسكونِ وكسر الشين الميم والضمير فيه عائد على (ما) الموصولة .

وقال النبي ﷺ : من يتصبَّرْ يُصبِّرْه اللهُ ، وما أُعْطِي أحدٌ عطاءً خيراً ولا أوْسَعَ من الصبر .

وقال عمر : وجدنا خيرَ عيشنا الصبرَ ، وقال عليٌّ : إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا إيمان لمن لا صبر له .

وقال الحسن : الصبر كنز من كنوز الجنة ، لا يعطيه الله إلا من كرُم عليه ،

وقال ميمون بن مِهران : ما نال أحد شيئاً من جسيم الخير — نبيٌّ فمن دونه — إلا بالصبر .

وقال إبراهيم التَّيْميّ : ما من عبدٍ وهبه الله صبراً على الأذى ، وصبراً على البلاء ، وصبراً على المصائب ، إلا وقد أُوتِيَ فضلا ما أُوتِيَهُ أحدٌ بعد الإيمان بالله عز وجل . وهذا مُنتزع من قوله تعالى : « وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ إلى قوله : وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١) » والمراد بالبأساء الفقر ونحوه ، وبالضراء المرض ونحوه ، وحين البأس حال الجهاد .

وقال عمر بن عبد العزيز : ما أنعم الله على عبد نعمة ، فانتزعها منه ، فعاضَه (٢) مكانَ ما انتزع منه الصبرَ إلا كان ما عوّضه خيراً مما انتزع منه ، ثم تلا : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب (٣) » .

وكان بعض الصالحين في جيبه ورقة يفتحها كل ساعة ، فينظر فيها ، وفيها مكتوب : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا (٤) » .

والصبر الجميل هو أن يكتم العبد المصيبة ولا يخبر بها .

---

(١) سورة البقرة آية (١٧٧) . (٢) أعطاه بدلها . (٣) سورة الزمر آية (١٠) .
(٤) سورة الطور آية (٤٨)

قال طائفة من السلف فى قوله تعالى : « فصبر جميل [1] » قال : لا شكوى معه .

وكان الأحنف بن قيس قد ذهبت عينه من أربعين سنة لم يذكرها لأحد .

وذهبت عينا عبد العزيز بن أبى رِواد من عشرين سنة ، فتأمله ابنه يوما فقال له : يا أبتى ! قد ذهبت عيناك ؟ فقال : نعم يا بنى ، الرضا عن الله أذهب عينى أبيك من عشرين سنة .

وكان الإمام أحمد رحمه الله : لايشتكى ما به من المرض لأحد ، وذُكر له أن مجاهداً كان يكره الأنين فى المرض ، فتركه فلم يَئِنَّ حتى مات ، وكان يقول لنفسه : يانفس اصبرى وإلا تندمى .

ودخل بعض العارفين على مريض يقول : آه ، فقال له هذا العارف : مِمَّنْ ؟ وفى هذا المعنى يقول بعضهم :

تَفِيضُ النفوس بأوصابها وتكتمُ عُوّادَها ما بها
وما أَنْصَفَتْ مُهْجَةٌ تشتكى هواها إلى غير أحبابها

قال يحيى بن معاذ : لو أحببت ربك ثم جوَّعك ، وأعراك ، لكان يجب أن تحتمله ، وتكتمه عن الخلق ، فقد يحتمل الحبيب لحبيبه الأذى ، فكيف وأنت تشكوه فيما لم يصنعه بك ؟!!!

وَيَقْبُحُ مِن سواكَ الفعلُ عندى وتفعلُه فيَحْسُنُ منكَ ذاكا

كان الرسول ﷺ وأصحابه يَشُدون على بطونهم الحجارة من الجوع .

---

(١) سورة يوسف آية (١٨) .

كان أُوَيس رحمه الله يلتقط الكِسَر من المزابل [1] ، والكلاب تزاحمه ، فَنَبَحَ عليه كلب يوماً فقال : يا كلب : لا تُؤْذِ من لا يُؤْذِيك ، كل مما يَليك ، وآكل مما يليني ، فإن دخلتُ الجنة فأنا خير منك ، وإن دخلتُ النار فأنت خيرٌ منى .

وكان ابراهيمُ بن أدهم يَلْقُط السُّنْبل مع المساكين ، فرأى منهم كراهة المزاحمة ، فقال : أنا تركت ملك بلخ ، أفأزاحم المساكين على لقاط السنبل ؟!

فكان بعد ذلك لايلتقط إلا مع الدواب التى ترعى فيه .

وكان الإمام أحمد يلتقط السنبل مع المساكين أيضاً .

وآجرَ سفيان الثورى نفسه من جَمَّالين فى طريق مكة فطبخ لهم طعاماً فأفسده فضربوه .

كان فَتْحُ الموصلى يوقد النار للناس بالأجرة .

مِن أَجْلك قد أنزلت خَدِّى أرضا ... للشامت والحسود حتى ترضى
مولاى ! إلى متى بهذا أحظى ؟ ... عمرى يفنى وحاجتى ما تقضى [2]

قال غيره :

كم أحمل فى هواك ذُلا وعَنا ... كم أصبر فيك تحت سُقْمٍ وضنى
لا تَطْرُدَنِىّ فليس عنك غِنى ... خذ رُوحىَ إن أردت الثمنا [3]

---

(١) جمع مزبلة : موضع إلقاء ما بقى من الأطعمة وغيرها .

(٢) هكذا ورد هذان البيتان بالأصل وهما بهذا الوضع خارجان عن أوزان الشعر المعروفة ، ويمكن تعديل نظمهما هكذا :

أنزلت من أجلك خدى أرضا ... للشامت الحسود حتى ترضى
إلى متى ربى بهذا أحظى ؟ ... عمرى يفنى والمنى ما تقضى

(٣) هكذا ورد هذان البيتان بالأصل وهما خارجان بهذا الوضع عن أوزان الشعر =

من أجل هواكم هَوِيتُ العِشْقا قلبى كَلِفٌ ودَمْعتى ما ترقا

فى حبكم يهون ما قد ألْقى ما يسعد بالنعيم مَن لا يشقى (١)

كانت مصائب الدنيا عندهم نعما حتى قال بعضهم : ليس بفقيه من لا يَعُدُّ البلاءَ نعمة ، والرخاءَ مصيبة .

ومن الإسرائيليات : إذا رأيت الغنى مقبلا ، فقل : ذنب عجلت عقوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلا ، فقل : مرحباً بشعار الصالحين .

وقال بعض السلف : إنى لأُصاب بالمصيبةِ فأحمد الله عليها أربع مرات : أحمد اللهَ إذْ لم تكنْ أعظمَ مما هى ، وأحمد الله إذ رزقنى الصبر عليها ، وأحمد الله إذ وفَّقنى للاسْتِرْجاع ، وأحمد الله إذ لم يجعلها فى دينى .

« انتظارُ الفرج بالصبر عبادة ، فإن البلاء لايدوم » .

اصْبِرْ لكل مصيبة وتَجلَّدِ واعلمْ بأن الصبرَ غيرُ مؤبَّدِ

واصبر كما صَبرَ الكرامُ فإنها نُوَبٌ تنوبُ اليوم تُكْشَفُ فى غد

إذا غُمِسَ أعظمُ الناس بلاء كان فى الدنيا — فى نعيم الجنة غمسة ، قيل له : هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مَرّ بك بؤس قط ؟ قال : لا يارب .

يا نفسُ ما هى إلا صَبْرُ أيامِ كأن مُدَّتها أَضْغاثُ أحلامِ

يا نفسُ جوزى عن الدنيا مبادرة وخل عنها فإن العيش قدامى

= المعروفة ويمكن تعديل نظمهما هكذا :

حملت فى هـواك ذلا وعنـا فيك اصطبرت تحت سقم وضنى

لا تطردنى ليس لى عنك غنى روحى خذها إن أردت الثمنا

(١) هكذا ورد هذان البيتان بالأصـل وهما خارجان بهذا الوضع عن أوزان الشعر المعروفة ، ويمكن تعديل نظمهما هكذا :

هوا كمو به هـويت العشـقا قلبى جـو ودمعتى ما ترقا

فى حبـكم يهون ما قد ألقى ما يسـعد النعيم من لا يشـقى

قال غيره :

وما هى إلا ساعة ثم تنقضى   ويذهب هـذا كله ويزول

⁂

قوله صلى الله عليه وسلم :

واعلم أن النصر مع الصبر ، هذا موافق لقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[1] » وقوله تعالى : « فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ إلى قوله : مَعَ الصَّابِرِينَ[2] » . وقوله تعالى : « كَم مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ[3] » وقوله تعالى : « بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُم رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ[4] » إلى غير ذلك من الآيات . والأحاديث فى الأمر بالصبر عند لقاء العدو كثيرة جداً .

وقال عمر لأشياخ من بنى عبس : بم قاتلتم الناس ؟ قالوا : بالصبر ، لم نلق قوماً إلا صبرنا لهم كما صبروا لنا .

وقال بعض السلف : كنا[5] نكره الموت وألم الجراح ، ولكن نتفاضل بالصبر .

---

(١) سورة الأنفال آية (٤٥) . (٢) سورة الأنفال آية (٦٥). (٣) سورة البقرة آية (٢٤٩) . (٤) سورة آل عمران آية (١٧٥) ومعنى الآية : إن تصبروا على مضض الجهاد وتتقوا ربكم باجتناب المعاصى ، ويأتكم المشركون مسرعين يمددكم ربكم بالملائكة المميزين بعلامات تعرفونهم بها ، وإمداد الله تعالى المؤمنين بالملائكه إيذان بنصرهم عند تحقق صبرهم وتقواهم . (٥) هكذا فى الأصل والذى فى جامع العلوم والحكم للمؤلف : « كلنا يكره » .

وسئل البطال عن الشجاعة فقال : صبر ساعة ، وهذا كله فى جهاد العدو الظاهر ، وهو جهاد الكفار ، وكذلك فى جهاد العدو الباطن ، وهو جهاد النفس والهوى ، فإن جهادهما من أعظم الجهاد ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : المجاهد من جاهد نفسه فى الله . وقال[1] عبد الله بن عمر لما سأله عن الجهاد : ابدأ بنفسك فجاهدها ، وابدأ بنفسك فاغزها . ويروى بإسناد ضعيف من حديث جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لقوم رجعوا من الغزو : قدِمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . قيل : وما الجهاد الأكبر ؟ قال : مجاهدة العبد لهواه .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى وصيته لعمر رضى الله عنه حين استخلفه : إن أول ما أحذرك نفسك التى بين جنبيك . ويروى من حديث سهل بن سنان عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، ومن حديث مالك الأشجعى عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا قال : ليس عدوك الذى إذا قتلك أدخلك الجنة ، وإذا قتلته كان لك نوراً ، أعدى عدوك نفسُك التى بين جنبيك. وأخذ هذا المعنى العباس بن الأحنف [فقال][2] :

قلبى إلى ماضرنى داعى ... يكثر أوجالى[3] وأوجاعى

وقلما أبقى على ما أرى ... يُوشك أن ينعانىَ الناعى

كيف احتراسى من عدوى إذا ... كان عدوى بين أضلاعى

---

(١) الذى يظهر لنا — بتوفيق الله تعالى — أن الضمير فى قال يعود للنبى صلى الله عليه وسلم ، وعليه فيكون نظم الكلام هكذا « وقال لعبد الله .. » . (٢) هو أبو الفضل العباس بن الاحنف بن الأسود الحنفى اليمامى الشاعر المشهور جميع شعره فى الغزل ؛ وشعره كله جيد . (٣) مخاوفى .

فهذا الجهاد أيضاً يحتاج إلى صبر ، فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه غَلَبَ وحصل له النصر ، ومن جزِع ولم يصبر على مجاهدة ذلك غُلب وقُهر وأُسر ، وصار ذليلا أسيراً فى يد شيطانه وهواه ، كما قيل :

إذا المرء لم يَغْلب هـواه أقامه ... بمنزلةٍ فيها العزيز ذليـــل

وقال غيره :

رب مستورٍ سَبَتْه[1] صَبوةٌ[2] ... فتعرّى صـبرُه فانهتكا

صاحب الشهوة عبـد ، فإذا ... غلبَ الشهوةَ صـار الملكا

قال ابن المبارك رحمه الله : من صبر فما أقلَّ ما يصبر ، ومن جزِع فما أقل ما يتمتع ؛ وفى الصحيحين عن النبى ﷺ قال : ليس الشديد بالصُّرَعة[3] ، إنما الشديدُ الذى يملك نفسه عند الغضب .

ووصف بعضهم الأحنف بن قيس ، فقال : كان أشدَّ الناس سلطاناً على نفسه . قيل لبعضهم : إن فلاناً يمشى على المـاء[4] .

واعلم أن نفسك بمنزلة دابتك إن عَرَفَتْ منك الجِد جَدَّت ، وإن عرفت منك الكسل طمِعت فيك : وطلبت منك حظوظها وشهواتها .

كان أبو سليمان الدارانى يقول : كنت بالعراق أمرُّ على تلك القصور والمراكب والملابس والمطاعم التى للملوك فلا تلتفت نفسى إلى شىء من ذلك ، وأمر على التمرة فتكاد نفسى تقع عليها ، فذُكر ذلك لبعض العارفين ؛ فقال : تلك الشهوات آيَسَ نفسه منها فأيست ، والتمرةُ أَطمعَها فيها فطمِعَت ؛ كما قيل فى المعنى :

---

(١) ملكته. (٢) هوى. (٣) القوى الذى يصرع غيره ويغلبه. (٤) بياض بالأصل.

صبرت على اللذات حتى تولت | وألزمت نفسى هجرها فاستمرت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى | فإن أُطمِعتْ تاقت ، وإلا تسلّتِ
وكانت على الأيام نفسى عزيزةً | فلما رأت عزمى على الذل ، ذلّتِ

فقوله ﷺ : إن النصر مع الصبر ، يشمل الصبر على جهاد العبد العدوَّ الظاهر ، وجهادِه لعدوه الباطن وهو نفسه وهواه ، وكان السلف يفضلون هذا الصبر على البلا[1] .

قال ميمون بن مِهْران : الصبر صبران ، الصبر على المصيبة حَسَن ، وأفضل من ذلك الصبر عن المعاصى .

وقال سعيد بن جبير : الصبر على نوعين : أحدهما الصبر عما حرم الله ، والصبر على ما افترض الله من عبادته وذلك أفضل الصبر ؛ والصبر الآخر فى المصائب . وقد ورد فى هذا حديث مرفوع من حديث علىّ ، لكنه لا يثبت .

***

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وأنَّ الفرج مع الكرب » هذا يشهد له قوله تعالى : اللهُ الّذِى يُرْسِلُ الرّياحَ فتُثِيرُ سَحَاباً فيَبْسُطُهُ فى السّماءِ كَيْفَ يَشاءُ ، إلى قوله : فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ. فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحيي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إنَّ ذَلِكَ لَمُحْيي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »[2] .

---

(١) لعل لفظ « البلا » محرف عن لفظ « الأول » . (٢) سورة الروم آية (٤٨) و (٤٩) و (٥٠) .

وقوله ﷺ فى حديث أبى رُزَيْنٍ العُقَيْلِىِّ : ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب خيره[1] . خرجه الإمام أحمد ، وخرج ابنه عبد الله من حديث أبى رُزَيْنٍ أيضاً : إنه ليُشْرِف عليكم أَزِلين[2] قَنِطِين فيظلّ يضحك ، عَلِم أن غيثكم قريب .

والمعنى : أنه سبحانه يعجب من قنوط عباده عند احتباس المطر عنهم ، وخوفِهم وإشفاقهم ويأسهم من الرحمة ، وقد قدّر الله تغيير هذه الحال عن قرب بإنزال المطر ، ولكنهم لا يشعرون . وهذا كما اشتكى [الصحابة] للنبى ﷺ — وهو قائم يخطب الجمعة — احتباسَ المطر ، وجَهْد الناس ، وسألوه أن يَسْتَسْقِىَ ربه ، فرفع النبى ﷺ يديه فاستسقى لهم ، فنشأ السحاب ، ومُطِروا إلى الجمعة الأخرى ، حتى قاموا إليه ﷺ وسألوه أن يَسْتَصْحِىَ[3] لهم ، ففعل ، فأقْلَعت السماء .

وقد قصّ الله تعالى فى كتابه قِصصاً كثيرة تتضمن وقوع الفرج بعد الكرب والشدة ؛ كما قصّ نجاة نوحٍ ومن معه فى الفلك من الكرب العظيم مع إغراق سائر أهل الأرض ؛ وكما قصّ نجاة ابراهيم عليه السلام من النار التى ألقاه المشركون فيها ، وأنه جعلها عليه برداً وسلاماً ؛ وكما قصّ قصة ابراهيم عليه السلام مع ولده الذى أُمِرَ بذبحه ثم فداه الله بِذِبْحٍ عظيم ؛ وكما قصّ قصة موسى عليه السلام مع أمه لما أَلقتْهُ فى اليم حتى التقطه آل فرعون ، وقصته مع فرعون لما نجى الله سبحانه

---

(١) المراد : أنه لم يرض عن يأس عباده من رحمته مع أنها قريبة منهم .
(٢) الأزل : الشدة والضيق . (٣) يطلب كف المطر وحبسه .

موسى فى البحر ، وأغرق عدوه ؛ وكما قص قصة أيوب ويونس ويعقوب ويوسف عليهم السلام وقصة قوم يونس لما آمنوا ؛ وكما قص قصص محمد صلى الله عليه وسلم ، ونصره على أعدائه ، وإنجائه منهم فى عدة مواطن : مثل قصته فى الغار ، وقصة يوم بدر ، ويوم أحد ، ويوم حنين ؛ وكما قص الله سبحانه قصة عائشة رضى الله عنها فى حديث الإفك ، وبرأها فيه مما رميت به ، وقصة الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت ، وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا .

وفى السُّنة من هذا المعنى شىء كثير : مثل قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار فانطبقت عليهم صخرة ، فدعَوُا الله بأعمالهم ففرّج عنهم .

ومثل قصة إبراهيم وسارة عليهما السلام مع الجبار الذى طلبها من إبراهيم ، ورد الله كيد الفاجر . والحكايات فى هذا المعنى فى الإسلام وقبله كثيرة جداً لا يمكن استقصاؤها ، وكثير منها مذكور فى الكتب المصنفة فى الفرج بعد الشدة لابن أبى الدنيا وغيره ، وكتاب مُجابى الدعوات لابن أبى الدنيا ، وكتاب المستغيثين بالله والمستصرخين به ، وكتب كرامات الأولياء ، وأخبار الصالحين ، وفى كتب التواريخ وغيرها .

ونحن نذكر طرفاً ها هنا يسيراً ، من أظرف ما حكى فى هذا الباب ليُعْتَبر به :

ذكر بعض العلماء فى مصنف له — وأظنه من المغاربة [1] — :

---

(١) هو أبو بكر الطرطوشى فى مصنفه : سراج الملوك ، فى الباب التاسع والخمسين، والمؤلف إنما حكى القصة بالمعنى .

أنه سمع من أبي ذرٍّ (١) الهَرَوى الحافظ ، يَحكى أنه كان ببغـداد يقرأ على أبي حفص بن شاهين ، فى دكان عطارٍ ، وأنه شاهد رجلا جاء إلى العطار ، فدفع إليه عشرة دراهم ، وأخذ منـه حوائج ، وجعلها فى طبق ، ووضـعه على رأسه ، فزَلِق طبقه ، وتفرقت حوائجه ، فبكى ، واشتد بكاؤه ، وقال : لقد ضاع منى فى قافلةٍ كذا وكذا : هِمْيَان (٢) فيـه أربعمائة دينار ، أو قال أربعة آلاف دينار ، ومعها فصوص قيمتها أكثر من ذلك ، فما جزِعت لضياعها ، ولـكن ولد لى الليلة ولد ، فاحتجنا فى البيت إلى ما تحتاج إليـه النفَساء ، ولم يكن عندى غير هذه العشرة الدراهم ، فلما قدّر الله بما قدّر ، جزعت ، وقلت : لا أنا عندى ما أرجع به اليوم إلى أهلى ، ولا ما أكتسب به غداً ، ولم يبق لى حيلة إلا الفرار عنهم وتركهم على هذه الحال فيهلكون بعدى ، فلم أملك نفسى أن جزعت هـذا الجزع . قال أبو ذر — ورجل من شيوخ الجنـد جالس على باب داره فسمع هذا كله ، فسأل الجنـدى أبا حفصٍ أن يدخل هو وأصحابه والرجل المصاب معه إلى بيته ، ففعـل ، وطلب من الرجل المصاب إعادة حكايته فى الهميان ، فأعاد ذلك عليـه ، وسأله عمن كان فى تلك القافلة ، وعن المـكان الذى ضـاع فيـه الهميان ، فأخبره ، ثم سأله عن صفة الهميان ، وعلامته فأخبره بذلك ، فقال : لو رأيتَه ، أكنتَ تعرفه ؟ ، قال : نعم . قال : فأخرجه إليه ، فلما رآه قال : هذا الهميان الذى سقط [منى] ، وفيه من الأحجار ما صفته كذا وكذا ، ففتح الهميان ،

---

(١) هو لم يسمع من أبى ذر ، وإنما سمع من أبى الوليد الباجى ، وأبو الوليد سمع من أبى ذر ، فلعل أصل العبارة : أنه سمع ممن سمع الخ . والله أعلم. (٢) حزام يشد على الوسط ، توضع فيه النقود ونحوها .

فوجد الأحجار على ما وصف ، فدفعه إليه ، وخرج من عنده وقد صار من الأغنياء . فلما خرج بكى الشيخ الجندى بكاءً شديداً ، فسُئِل عن بكائه ، فقال : إنه لم يكن بقى لى فى الدنيا أمل ولا أمنية أتمناها إلا أن يأتى الله بصاحب هذا المال فيأخذه ، فلما قضى الله بذلك بفضله ، ولم يبق لى أمل ، علمت أنه قد حان أجلى .

قال أبو ذرّ : فما انقضى شهر حتى توفى وصلينا عليه . رحمه الله .

وفى هذا المعنى حكايات كثيرة عجيبة تركناها .

* * *

قوله صلى الله عليه وسلم : « وَأَنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً » هذا منتزع من قوله تعالى : « سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً [1] » وقوله : « فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً [2] » .

وروى حميد بن حماد بن الْخُوار [3] : حدثنا عائذ بن شريح [4] ، سمعت أنس بن مالك يقول : كان النبى صلى الله عليه وسلم جالساً وحياله جُحْر فقال : لو جاء العسرُ فدخل هذا الْجُحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه ، فأنزل الله عز وجل : « فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً » أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره ، وخرجه البزّار فى مسنده ، ولفظه :

---

(١) سورة الطلاق ، آية (٧) . (٢) سورة الشرح آية (٥) ، (٦) .

(٣) حميد بن حماد بن الخوار ، بضم المعجمة التميمى الكوفى ، ضعفه أبو داود ، وقال الدار قطنى : يعتبر به ، وذكره ابن حبان فى الثقات ولينه ابن عدى ، وقال أبو حاتم : شيخ يكتب حديثه ، ليس بالمشهور . (٤) صاحب أنس ، قال أبو حاتم : فى حديثه ضعف ، وقال ابن طاهر : ليس بشىء .

لو جاء العسر حتى يدخل هذا الجحر لجاء إليه اليسر حتى يخرجه ، ثم قال : إن مع العسر يسراً . وحميد بن حماد هذا ضعيف .

وخرج ابن أبى حاتم من رواية مبارك بن أبى فضالة عن الحسن قال : كانوا يقولون لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين .

وخرج ابن جرير من رواية عن الحسن قال : خرج النبى ﷺ يوماً مسروراً فرحاً وهو يقول : لن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْنِ ، إن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً .

وخرجه أيضاً من رواية عوف ويونس عن الحسن مرسلا[1] أيضاً ، ومن حديث قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر أصحابه بهذه الآية فقال : « لن يغلب عسر يسرين » .

ومن حديث عبد الله بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن جده أن أبا عبيدة حُصِر ، فكتب إليه عمر يقول : ما ينزل بامرىء شدة إلا جعل الله له بعدها فرجاً ، وإنه لن يغلب عسر يسرين ، وإن الله تعالى يقول : « اُصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا واتقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »[2] .

وكذا قال ابن عباس وغيره من المفسرين فى هذه الآية : « لن يغلب عسر يسرين » كان بعض المتقدمين ليلة فى بادية فى غم شديد ، فَأُلْقِى فى رُوعِه بيتٌ من الشعر قال :

أرى الموت لمن أصـ ـبح مغموماً ، له أصلح

فلما جن عليه الليل سمع هاتفاً يهتف :

---

(١) المرسل : ما سقط منه الصحابى . (٢) سورة آل عمران ، آية (٢٠٠) .

ألا أيها المرء الذى به الهم لم يبرح (١)
وقد أنشد بيتاً لم يزل فى ذكره يسنح
إذا اشتد بك العسـ ـر ففكر فى ألم نشرح
فعسر بين يسرين إذا أبصرته فافرح

قال : فحفظت الأبيات ففرَّج الله غمى . وقد أكثر الشعراء من القول فى هذا المعنى ، ونذكر قطعة منتخبة من محاسن ما قيل فى ذلك :

تصبّر إن عقبى الصبر خير ولا تجزع لنائبة تنوب
فإن اليسر بعد العسر يأتى وعند الضيق تنكشف الكروب
وكم جزعت نفوس من أمور أتى من دونها فرج قريب

ولبعضهم :

فلا تجزع وإن أعسرت يوماً فقد أيسرت فى الزمن الطويل
ولا تظننْ بربك ظنَّ سُوء فإن الله أولى بالجميل
ولا تيأس فإن اليأس كفر لعل الله يغنى عن قليل
فإن العسر يتبعه يسار وقيلُ الله أصدقُ كلِّ قيل

ولبعضهم :

مفتاح باب الفرج الصبر وكل عسر بعده يسر
والدهر لا يبقى على حالة والأمر يأتى بعده الأمر

---

(٢) هكذا فى الأصل بهذا الوضع الذى لا يوافق وزناً من أوزان الشعر ، ويمكن تعديل نظمه هكذا :

ألا يأيها المرء الـ ـذى فى الهم لم يبرح

ولبعضهم :

عسى ما ترى ، ألا يدوم وأنْ ترى له فرجاً مما يجىء به الدهر
عسى فرج يأتى به الله إنه له كلَّ يوم فى خليقته أمرُ
إذا لاح عسر فارجُ يسراً فإنه قضى الله أن العسر يتبعه اليسر

ولنختم الكتاب بذكر نبذة يسيرة من لطائف البلايا ، وفوائدها ، وحكمها ، فمنها تكفير الخطايا بها ، والثواب على الصبر عليها ، وهل يثاب على البلاء نفسه ؟ فيه اختلاف بين العلماء : ومنها تذكير العبد بذنوبه ، فربما تاب ورجع منها إلى الله عز وجل ؛ ومنها زوال قسوة القلوب ، وحدوث رقتها .

قال بعض السلف : إن العبد ليمرض فيذكر ذنوبه ، فيخرج منه مثل رأس الذباب من خشية الله فيغفرُ له ؛ ومنها انكساره لله عز وجل ، وذلّه له ، وذلك أحب إلى الله من كثير من طاعات الطائعين ؛ ومنها أنها توجب للعبد الرجوع بقلبه إلى الله عز وجل ، والوقوف ببابه ، والتضرع له ، والاستكانة ، وذلك من أعظم فوائد البلاء ، وقد ذم الله من لا يستكين له عند الشدائد . قال تعالى : « وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ [1] وقال : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ ، وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ [2] » .

وفى بعض الكتب السابقة : إن الله ليبتَلى العبدَ وهو يُحبُّه لِيَسْمَعَ تضرُّعَه .

---

(١) المؤمنون آية (٧٦) . (٢) سورة الأنعام ، آية (٤٢) .

وقال سعيد بن عبد العزيز : قال داود عليه السلام : سبحان مُستخرِج الدعاء بالبلاء ، وسبحان مستخرج الشكر بالرَّخاء .

ومر أبو جعفر محمد بن على بمحمد بن المُنْكَدِر وهو مغموم ، فسأل عن سبب غمه، فقيل له : الدَّيْن قد فدحه ، فقال أبو جعفر : أَفُتِحَ له فى الدعاء؟ قيل: نعم . قال : لقد بورك لعبد فى حاجة أكثر فيها من دعاء ربه كائنة ما كانت .

وكان بعضهم إذا فُتِحَ له فى الدعاء عند الشدائد ، لم يحب تعجيل إجابته خشية أن يقطع عما فتح له .

وقال ثابت : إذا دعا اللهَ المؤمنُ بدعوة ، وَكَّل الله جبريل بحاجته ، فيقول الله : لا تعجل بإجابته ، فإنى أحب أن أسمع صوت عبدى المؤمن ، وروى مرفوعاً من وجوه ضعيفة .

رأى بعض السلف رب العزة فى نومه فقال : يارب كم أدعوك ولا تجيبنى؟ قال : إنى أحب أن أسمع صوتك .

ومنها أن البلاء يوصل إلى قلبه لذة الصبر عليه ، أو الرضا به ، وذلك مقام عظيم جداً . وقد تقدمت الإشارة إلى فضل ذلك وشرفه .

ومنها أن البلاء يَقْطَع قلبَ المؤمن عن الالتفات إلى المخلوق ، ويوجب له الإقبال على الخالق وحده .

وقد حكى الله عن المشركين إخلاص الدعاء له عند الشدائد ، فكيف بالمؤمن . فالبلاء يوجب للعبد تحقيق التوحيد بقلبه ، وذلك أعلى المقامات ، وأشرف الدرجات .

وفى الإسرائيليات : يقول الله عز وجل : البلاء يجمع بينى و بينك ، والعافية تجمع بينك و بين نفسك .

فصـل — وإذا اشتد الـكرب وعظم الخطب

كان الفرج حينئذ قريباً فى الغالب

قال تعالى : « حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا[١] » وقال تعالى : « حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ[٢] » وَأَخْبَرَ عن يعقوب عليه السلام أنه لم ييئس من لقاء يوسف ، وقال لإخوته : « اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ، وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ[٣] وقال : « عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعاً »[٤] .

ومن لطائف أسرار اقتران الفرج باشتداد الـكرب ، أن الـكرب إذا اشـتد وعظم ، وتناهى ، وَوُجِدَ الإياسُ مِنْ كشفه من جهـة المخلوق ، ووقع التعلق بالخالق — استجاب له وكشف عنه ؛ فإن التوكل هو قطع الاسْتِشْراف باليأس من المخلوق ، كما قال الإمام أحمد ، واستدل عليه بقول إبراهيم عليه السلام لمـا عرض له جبريل فى الهواء ، وقال له : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا .

والتوكل من أعظم الأسباب التى تطلب بهـا الحوائج ، فإن الله يكفى من توكل عليه ، كما قال : « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فهو حَسْبُهُ[٥] »

---

(١) سـورة يوسف : آية : (١١٠) . (٢) سورة البقرة ، آية : (٢١٤) .
(٣) سـورة يوسف ، آية : (٨٧) . (٤) سورة يوسـف ، آيه : (٨٣) .
(٥) سورة الطلاق ، آية : (٣) .

قال الفُضَيْل : « واللهِ لو يَئِسْتَ من الخلق حتى لا تريد منهم شيئاً لأعطاك مولاكَ كلَّ ما تريد ».

ومنها أن العبد إذا اشتد عليه الكرب ، فإنه يحتاج حينئذ إلى مجاهدة الشيطان لأنه يأتيه فيُقَنِّطُهُ ، وَيُسْخِطُهُ ، فيحتاج العبد إلى مجاهدته ، ودفعه ، فيكون فى مجاهدة عدوه ، ودفعه دفعُ البلاء عنه ، ودفعه ، ولهذا فى الحديث الصحيح : يستجاب لأحدكم ما لم يعْجل : يقول : دعوت فلم يُسْتَجَبْ لى ، فَيَدَعُ الدعاء .

ومنها أن المؤمن إذا استبطأ الفرج ، وأيس منه ، ولا سيما بعد كثرة دعائه وتضرعه ، ولم يظهر له أثر الإجابة ، رجع إلى نفسه باللائمة ، يقول لها : إنما أُتيتُ من قِبَلِكِ ، ولو كان فيك خيرٌ لَأُجِبْت ، وهذا اللوم أحب إلى الله من كثير من الطاعات ، فإنه يوجب انكسار العبد لمولاه ، واعترافه له بأنه ليس بأهل لإجابة دعائه ، فلذلك يسرع إليه حينئذ إجابة الدعاء ، وتفريج الكرب ، فإنه تعالى عند المنكسرة قلوبُهم من أجلِه « على قدر الْكَسْر يكون الْجَبْر » .

قال وهب : تعَبَّدَ رجل زماناً ، ثم بدت له إلى الله حاجة ، فصام سبعين سَبْتاً ، يأكل فى كل سبتٍ إحدى عشرة تمرة ، ثم سأل الله حاجته فلم يعطها ، فرجع إلى نفسه فقال : مِنْكِ أُتيتُ ، لو كان فيكِ خيرٌ لأعْطيتِ حاجتك ، فنزل إليه عند ذلك ملَك فقال : يابن آدم ، ساعتُك هذه خيرٌ من عبادتك التى مضت ، وقد قضى الله حاجتك .

أهينُ لهم نفسى لكى يكرمونها ولن تكرم النفس التى لا تهينها

فمن تحقق هذا ، وعرفه ، وشاهَده بقلبه ، علم أن نعمَ اللهِ على عبده المؤمن في البلاء ، أعظم من نعمه عليه في الرخاء ، وهذا تحقيق معنى الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن.

ومن هاهنا كان العارفون بالله لا يختارون إحدى الحالتين على الأخرى بل أيهما قدر الله رضوا به ، وقاموا بعبوديته اللائقة . وفي المسند والترمذي عن أبي أُمامة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : عرَضَ عليّ ربي بطحاءَ مكة ذهباً ، فقلت : لا يارب ، ولكن أَشبع يوماً ، وأجوع يوماً فإذا جُعتُ تَضرَّعْتُ إليك وذكرتك ، وإذا شبِعت شكرتك ، وحمِدتُك.

وقال عمر : ما أبالي أصبحتُ على ما أحب أو على ما أكره ، لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره ، وقال عمر بن عبدالعزيز : أصبحت ومالي سرور إلا في مواقع القضاء والقدر .

يا هذا ، لِمَ نستدعيك إلينا وأنت تفر منا ؟ نسبغ عليك النعم ، فتشتغل بها عنا أو تنسانا ، فنفرغ عليك البلاء لترد إلينا ، وتقف على بابنا ، ونسمع تضرعك ؛ البلاء يجمع بيننا وبينك ، والعافية تجمع بينك وبين نفسك ، كما قيل :

إن جرى بيننا وبينك عَتبٌ أو تناءت منا ومنك الديار
فالوداد الذي عهِدْتَ مقيم والأيادي التي عَهِدْتَ غزَارُ

***

كم لنا فى طى البلايا من منح وعطايا ، وفى الزوايا خبايا ؛ يا هذا إن شكرت نعمنا عليك ، فتوفيقك للشكر من جملة فضلنا فاذكره ، فكل ما تتقلب فيه فهو من نعمنا فلا تكفره ، « وَإنْ تعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوها إنَّ الْإِنسان لَظَلُومٌ كفَّارٌ[1] » كما قيل :

إذَا كان شكرى نعمة اللهِ نِعْمَةً ... عَلَىَّ له فى مثلها يجب الشكرُ
فَكَيْفَ وقوعُ الشُّكرِ إلا بِفَضْلِهِ ... وإن طالت الأيامُ واتصل العمرْ
إذَا مَسَّ بالسراء عَمَّ سرورُها ... وإن مَسَّ بالضراء أعقبها الأجرُ
وما منهما إلّا له فيه مِنَّةٌ ... تَضيق لها الأوهام والبر والبحر

[تم كتاب « نور الاقتباس ، فى مشكاة وصية النبى ﷺ لابن عباس » تصنيف الإمام العالم الحافظ ، شهاب الدين ابن رجب الحنبلى عفا الله عنه ، وأدخله جنته بمنه وكرمه] .

قرار

[قرر مجلس إدارة جماعة التعاون العلمى طبع كتاب تفسير سورة يس للأستاذ العلامة المغفور له الشيخ عبد الفتاح خليفة رحمه الله رحمة واسعة] .

---

(١) سورة ابراهيم ، آية :(٣٤) .

